سيناريو فيلم

المرآ



سيناريو: الكسندر تشارين

ترجمة: يونس كامل د

سيناريو فيلم

المـــرآة

منشورات وزارة الثقافة - المؤسسة العامة للسينما

في الجمهورية العربية السورية - دمشـــق ٢٠٠٣

العنوان الأصلي للكتاب :

Мишарин Александр,

Тарковский Андрей

ЗЕРКАЛО

киносценарий

سلسلة الفن السابع ٦٣

المرآة

لا يعـــني اسمـــي لك شيئاًولكن في الحزن
والســـكينة وأنت مكتئبة، الفظيه قولي: ثمة
من يذكرني ثمة في العالم قلب أسكنه.

بوشكين

حل الشتاء أخيراً. هطلت بواكير الثلج الذي سيذوب غداً. وفي مركز المدينة في الليل، سيجرفونه بالآلات، وسيبدأ عمال التنظيف معركتهم اليومية التي ستطول عدة أشهر، حتى بداية نيسان تقريباً.

هنا قرب الضواحي، يثير هذا الثلج الخفيف الفتي بهجةً أكبر. إنه يذكرنا بعيد رأس السنة، ويبدو كبداية لعيد. ما يزال النهار يتأخر في الطلوع كما في تشرين الثاني والناس يخرجون من بيوتهم وهم يفكرون: «ها قد حل الشتاء، وخفية مضى عام آخر!..» وعندما تلوح الشمس عبر الغيوم الواطئة، فإن الشارع الطويل ذا البيت الأبيض العالي، المحاط ببيوت خشبية صغيرة وأسيجة وسقائف، يبدو، في عمق الساحات، أنيقاً بلا مناسبة، وتنتابك الحيرة بسبب هذا. وفي الشارع يسود هدوء جديد، شتوي، وكل صوت يبدو خفيفاً، مفتوحاً، ورناناً. ولسببٍ ما تحس بالرغبة في أن تبدأ حياةً جديدة.

عند باب المقبرة ثمة نساء يبعن أغصان الشوح وأزهاراً ورقية، والشرطي الذي يراهن هنا، ربما، ليس أول مرة، فإنه يحاول ألا يعرهن اهتمامه، وإنما يكتفي بالوقوف أمام واجهة محل الزهور المغطاة بالصقيع، متأملاً تلك البراعم المتأخرة، المصفوفة خلف الزجاج. عبر البوابة المفتوحة يدخل أناس يحملون مجارف ورفوشاً ملفوفة بالخرق...

– ماما.. هذا أنت؟

– أجل، أجل.. ماذا حدث؟

– لا شيء.. إنه مجرد سؤال..

– أما يزال كل شيء لديك على حاله؟ ألا تفعل شيئاً؟

– ماذا أقول لك؟ إنني لا أفعل شيئاً.. وإنما أستجمع أفكاري.. ألا تذكرين ما هو ذلك النهر الصغير ذو الاسم الغريب المار بالضيعة..؟

– أي نهر؟ تقصد نهر الغراب؟

– نعم، هذا هو، الغراب.

– ما حاجتك إليه؟

– لا شيء. خطر ببالي فحسب.

– أأنت بجد اتصلت بي فقط لتعرف اسم نهر الغراب؟!

– قد لا أستطيع المجيء اليوم. سأتصل بك. إلى اللقاء.

– من أين تتكلم؟

– من المدينة، من الباب العمومي.

في المقبرة، وعبر زواياها المغطاة بالثلج، كان ثمة جنازة قليلة العدد تتحرك. رجال يحملون نعشاً. في المقدمة يسير رجل يحمل مجرفة. إنه يتقدم بسرعة، ولهذا كان بين حين وآخر يتوقف وينتظر.

الهبوب الخفيف للريح هنا، والذي ربما لا يكاد يلاحظ في المدينة، يحمل ندف الثلج عبر الأشجار الباسقة، ويهيلها على الرؤوس الحاسرة ووجه الميت.

لا أحد يصدقني عندما أقول إنني أتذكر نفسي عندما كان لي من العمر عام ونصف. ولكنني أذكر بالفعل الدرج الخارج من الشرفة، وأحراش الليلك، وكيف كنت أتزلج على حاجز الدرج بواسطة غطاء طنجرة من الألمنيوم، في نهار مشمس للغاية.

أغلقوا النعش، وفجأة شهق أحدهم وألقى بنفسه على النعش مطالباً بفتحه، ثم تسمَّر في أرضه، وعندها حل الهدوء في تلك الغابة الحزينة، التي تتأرجح أشجارها على مهل.

أحياناً يخيل إليَّ أن من الأفضل ألاّ نعرف شيئاً عن الموت، وألا نفكر فيه، مثلما لم نعرف شيئاً عن ولادتنا، ولم يكن باستطاعتنا أصلاً التفكير فيها.

من أجل ماذا ومن، ينبغي أن تذهب حياتنا إلى غير رجعة وبمثل هذه القسوة، ولماذا علينا أن نعاني من اليأس والخواء، ومن أين يستمد البشر كل هذه القوة؟ على ماذا يعاقبون؟ لماذا كلما أحببنا أكثر كان الفقد أكثر إيلاماً وهولاً؟

لماذا، وبأي حق، اعتدنا الموت؟ وكيف ترغمنا الطبيعة على أن نكون سطحيين بحيث لا نفكر فيه؟ خاصة وأننا نظهر بمظهر من يعرف كل شيء.

ترى ألم يمت ما يكفي من الناس؟ لماذا نحرم من آخر ما لدينا؟ فالموتى في الحرب لم يعودوا يحصون بالمئات والآلاف، وإنما بالملايين وعشرات الملايين! وربما بعد الحرب القادمة لن يبقى أحد ولن يكون هناك من يبكينا؟!

ولكن الناس يموتون، ويحملون على العربات، ويدفنون في الرمل بعد أن يغطوا بأكفان رطبة، وعليهم يبكي أهلهم، ولهم تحفر المقابر في الجليد، وتطلق لهم ثلاث طلقات في الهواء..

ربما كان من الأفضل ألا نحب أحداً، وأن نعمى ونصم ونقتل في أنفسنا الذاكرة؟ كيف يمكن إيقاف كل هذا؟

وفجأة تخطر في بالي تلك التعويذة:

وها هو يقترب من فمي

ويقتلع لساني الخاطئ

لساني الهاذر المرح

لسان الأفعى الحكيمة

وإلى فمي المتيبس

يعيد لثة مدماة

وها هو يشق صدري بالسيف

وينتزع قلبي المرتعش

ويحشو حفرة الصدر

بجمر ملتهب

يموت الناس بأشكال مختلفة. منهم من يموت وحيداً وليس لديه من يدفنه، منهم من يموت في أرذل العمر، أو يموت قبل أن يبدأ حياته محترقاً بالنار، أو على متن باخرة فيغدو البحر قبره، ويودعون بصمت جليل وبارد، أو بنحيب الأحباء عندما يموتون برصاصة أو يغرقون في مستنقع، على بعد مئات الكيلومترات عن بيتهم، أو يودعون بالأزهار وطلقات المدافع، وبموكب رسمي.. يموتون دون أن ينتبه إليهم أحد، في صالة مسرح أو سينما، ويغيبون في الرمل والنار والتراب، في المجهول، عبر حزن المحبين وخواء يأسهم. عندما يذهبون، يغيبون ويغيبون في عتمة الحياة المنقطعة.

... كنت أرقد كالجثة في الصحراء

فناداني الحب بصوته:

قم أيها النبي، وانظر واستمع

ونفّذ إرادتي

طف بالبحار والبراري

وألهب القلوب بكلمتي

التراب يرتفع ويهوي جانباً، والتابوت يخرج من القبر، ويرتفع غطاؤه، والمشيعون يتراجعون ذاهلين، وتذرف الدموع من جديد.

بعد فترة وجيزة، عاد الناس إلى المدينة الحية الصاخبة، مدينة كل يوم.

الأسئلة التي ينبغي أن تجيب عليها أمي:

تم إجلاؤكم عندما اندلعت الحرب. ألا تذكرين في أي يوم حدث هذا؟

كيف وصلتم إلى مستقركم الجديد؟ تذكري من فضلك.

أين سكنتم بعد الإجلاء؟ ما هو هذا المكان؟ ألم تكوني فيه من قبل؟

من تحبين أكثر: ابنك أم ابنتك؟ من منهما أقرب إليك، الآن وعندما كانا طفلين؟

كيف تنظرين إلى اكتشاف الطاقة النووية؟

هل تحبين إقامة الحفلات في بيتك ودعوة الضيوف؟

هل تجيدين العزف على آلة موسيقية ما؟ ألم تدرسي الموسيقى أبداً؟ والغناء؟ وفي شبابك؟

هل تحبين الحيوانات؟ أي منها تحديداً؟ الكلاب أم القطط أم الخيول؟

ما رأيك بـــ «الصحون الطائرة»؟

هل تؤمنين بالأشياء التي تجلب الحظ أو النحس؟

لقد عملت زمناً طويلاً في المؤسسة ذاتها. لماذا؟ ربما كان بإمكانك العثور على عمل أفضل؟

ما رأيك بمفهوم «التضحية بالذات»؟

لماذا، بعد الانفصال عن زوجك، لم تحاولي الزواج مجدداً؟ ألم يكن لديك رغبة؟

نهر الغراب هادئ وغير عميق، تغمره أعشاب طويلة مجدولة كثيفة، تلمع عند المنعطفات. كان النهر يقطع مرجاً واسعاً.

أنا وأختي كنا نتسكع في الماء الدافئ، والشجيرات التي تعلوه بحثاً عن العنب البري. كانت شفاهنا وأكفنا وردية وأسناننا كحلية.

بالقرب من جسر مؤلف من شجرتي حور رومي ساقطتين كانت أمنا تغسل البياضات وتضعها في طبق أبيض.

– مانيا! – ارتفع نداء ضاعفه الصدى من رابية تكسوها الأشجار.

– دونيا؟! – أجابت أمي.

– مانيا! – جاء الصوت مجدداً من عل– ألن تذهبي لاستقبال زوجك؟ إنه قادم في قطار الثانية عشر!

– دونيا! تعالي إلي لأخذ الغسيل! أنا ذاهبة.. اتفقنا؟ وانتبهي للطفلين.

– طيب..

خرجت أمي مسرعة من الماء، وأرخت كميها وهي سائرة، وصعدت الرابية عبر درب ضائع بين الشجر.

– هيه! لا تذهبا إلى أي مكان! الآن ستأتي إليكما الخالة دونيا – صاحت بنا أمي واختفت بين الأشجار.

كان الطريق من محطة القطار يمر بقرية أغناتفا ثم ينعطف جانباً وينحني وفق انحناء النهر، على بعد كيلومترين من المزرعة التي نأتي للسكن فيها كل صيف، ثم يتابع سيره عبر غابة السنديان المقفرة متجهاً إلى قرية تومشينو. بين المزرعة والطريق يمتد حقل من الفول. لا يمكننا رؤية الطريق من المزرعة ولكننا كنا نحس به من المارة القادمين من المحطة إلى تومشينو. الطريق الآن خال.

كانت أمي جالسة على خشبة مرنة من أخشاب السور الممتد عبر طرف الحقل.

من هنا يصعب تخمين السائر على الطريق في مشيته. عادة كنا نتعرف على القادمين إلينا فقط عندما يظهرون من خلف الشجيرات الكثيفة التي تتوسط الحقل.

كانت أمي جالسة تنتظر. الشخص الذي يسير على الطريق متمهلاً، كان محجوباً عنا بالشجيرات.

إذا ظهر الآن عن يسار الشجيرات فهو أبي. وإذا ظهر عن يمينها فليس هو، وهذا يعني أن أبي لن يأتي أبداً.

ظهر القادم عن يمين الشجيرات.

القادم (مقترباً): عفواً أيتها الفتاة. هل أسير في الاتجاه الصحيح نحو تومشينو؟

الأم: كان عليك ألا تنعطف عند الشجيرات.

القادم (ناظراً فيما حوله): آ.. ما هذا؟

الأم: ماذا؟

القادم: لم أنت جالسة هنا؟

الأم: هنا أعيش.

القادم: أين؟ فوق السور تعيشين؟

الأم: أنا لا أفهم.. ما الذي يهمك بالضبط: الطريق إلى تومشينو أم أين أعيش؟

القادم (وقد لاحظ المزرعة خلف الأشجار): آه.. هناك بيت. (ثم وهو يلوح بحقيبته الجلدية) تصوري أنني جلبت معي كل الأدوات ولكن نسيت المفتاح. ألديك مسمار أو مفك؟

الأم: لا.. ليس لدي مسامير.

القادم: ولماذا أنت متوترة؟ هاتي يدك فأنا طبيب. (ويأخذ يدها في يده).

الأم: ماذا أخيراً؟

القادم: إنك تشوشين علي، فلا أستطيع العد.

الأم: وماذا علي أن أفعل، هل أنادي زوجي؟

القادم: ليس لديك أيّ زوج. أنا لا أرى خاتماً.. أين خاتم الزواج؟ رغم أن قلة تلبس الخواتم الآن.. العجائز وما شابه..

صمت حرج.

القادم: أيمكنني أن أطلب منك سيجارة؟ (يشعل السيجارة ويجلس قرب الأم) لماذا أنت حزينة؟

السور يشهق وينخلع. الاثنان يسقطان على الأرض. الأم تهب واقفة، أما القادم فيرقد بين الأعشاب ضاحكاً.

الأم: يا إلهي! لا أفهم ما الذي يفرحك هكذا.

القادم: من الممتع أن يقع المرء مع امرأة لطيفة. (فاصل يستعرض فيه القادم الأعشاب والشجيرات الممتدة حوله) أتعلمين.. لقد وقعت فوق أعشاب وجذور.. الخ.. ألم يخطر لك يوماً أن النباتات تحس وتفكر بل وتكتشف؟ شجرة الجوز هذه مثلاً..

الأم (باستغراب): هذه شجرة حور رومي..

القادم (منزعجاً): هذا ليس مهماً. كنت أريد القول إن الأشجار لا تركض إلى أي مكان. نحن الذين نركض ونصخب، ونتفوه

بالتفاهات. كل هذا لأننا لا نؤمن بالطبيعة التي تسكننا. ليس لدينا سوى العجلة وسوء الظن، وقلة الوقت المخصص للتفكير.

الأم: اسمع.. ولكن هذا..

القادم: (مقاطعاً): سبق وسمعت ما تريدين قوله. ولكن هذا لا يهددني. فأنا طبيب.

الأم: ألم تسمع بـ "العنبر رقم ٦" ؟

القادم: هذا مجرد اختلاق. محض خيال وتأليف. (يرفع عن الأرض حقيبته ويبتعد في الممر المؤدي إلى الحقل، ويتوقف) تعالي إلينا في تومشينو. أحياناً نمضي أوقاتاً مرحة هناك.

الأم (تصرخ في إثره): الدم يسيل منك!

القادم: من أين؟

الأم: خلف أذنك. ليس هذه، بل الأخرى!

القادم يلوح بيده غير عابئ، ثم يقطع الممر نحو المنعطف إلى تومشينو.

الأم تتابعه ببصرها طويلاً، ثم تستدير وتسير على مهل نحو المزرعة.

كان الصباح مطفأ. وكنت وأختي نجلس خلف المائدة في غرفة شبه مظلمة ونأكل عصيدة الحنطة بالحليب. وكانت أمي واقفة قرب النافذة، متكئة بعجزها على طرفها، تتصفح دفتراً أخرجته من حقيبة السفر.

الصفحات الأخيرة تحرق ذاتها

تصعد إلى السماء وتقف في دربك

كل هذه الغابة تعيش ذاك القلق

كالذي عشناه أنا وأنت في العام الأخير
في العيون الدامعة ينعكس الطريق
كما ينعكس في البركة الشجر
لا تشاكس، لا تهدد، لا تقترب
لا تدس صمت الغابة
يمكنك أن تستمع إلى أنفاس الحياة القديمة:
الفطر يزحف فوق العشب الندي
واللزوجة تنخر فيه حتى العظام
ولذع طري يدغدغ الجلد
ماضينا كله أشبه بالوعيد
انتظرني، سأعود لأقتلك
السماء ترتعد وتحضن صفصافة
وكأنها تقدم وردة
فلتصعد النار أعلى
حتى تبلغ العيون

فجأة صرخ أحدهم. لقد عرفت فيه صوت العم باشا، صاحب البيت الذي نقطنه:

- دونيا، يا إلهي، دونيا!

نظرت أمي عبر النافذة، ثم اندفعت نحو مخزن القش. عادت بعد ثوان وقالت لنا :

– ثمة حريق، ولكن لا تصرخا !

تسمَّرنا من البهجة، ثم ركضنا إلى الفناء.

على الدرج، في عتمة الغروب، كانت تقف كل أسرة غورتشاكوف: العم باشا، دونيا، وابنتهما كلانكا ذات السنوات الست، وكانوا ينظرون جميعاً نحو البيدر.

– آه يا ابن الكلب – غمغم العم باشا عبر أسنانه– لو أنك تقع في يدي...

– ربما يكن هذا من فعل فيتكا.. ربما هو هناك.. يحترق؟ قالت دونيا بصوت خفيض وهي تجفف دموعها بطرف منديلها.

كانت تلة القش الضخمة، الواقفة في منتصف البيدر، تلتهب كالشمعة. إن قش آل غورتشاكوف كان يحترق. لم يكن هناك ريح، وكانت الشعلة البرتقالية تتصاعد بهدوء نحو السماء، مضيئة جذوع شجر البتولا الواقفة على نتوء في الغابة البعيدة.

كان عمرك ٨ سنوات عندما قامت الثورة.. ماذا تذكرين من ذلك الزمن؟

من تعتبرينه الأقوى: الرجل أم المرأة، ولماذا؟

هل فعلت ما يخالف ضميرك يوماً ما؟ إذا كان الجواب نعم فضمن أي ظروف؟

اعذريني على هذا السؤال السطحي: ما هو الطعام المفضل لديك؟

كيف بدأت تدخنين؟ ألست نادمة على هذا؟

هل صادقت أناساً ليسوا من وسطك الاجتماعي؟ كيف وضمن أي ظروف؟

حدثيني عن أحد منهم، تعتقدين أنك أحببته أكثر من الآخرين؟

كيف تستطيعين صياغة مفهوم كالتاريخ؟

لماذا ربحنا الحرب الوطنية، ما هي وجهة نظرك؟

حفيدك ما يزال طفلاً. ما هي الكتب واللوحات والمؤلفات الموسيقية التي تريدين أن تعرفيه عليها أولاً؟

لو أتيحت لك الفرصة في أن تتوجهي إلى جميع البشر على الأرض بنصيحة أو طلب فماذا ستقولين لهم؟

هل حدث لك أن كنت غير منصفة؟ إذا كان الجواب نعم فمتى وضمن أية ظروف؟

خلال حياتك كنت في أماكن أخرى غير موسكو.. أين كنت تحسين نفسك أفضل ولماذا؟

هل حدث لك أن تصرفت بشكل مبدئي، ثم عانيت من نتائج تصرفك هذا؟

هل كنت مضطرة دائماً لأن تدفعي ثمن مبادئك؟

هل رغبت يوماً في تصحيح هذا الخطأ؟ أم أن المبادئ أهم بالنسبة إليك من أي ثمن تدفعينه؟

انطلاقاً من تجربتك ماذا تنصحين أولئك الذين بدؤوا حياتهم للتو؟

هل تخيلت يوماً ابنك جندياً؟ ألم يكن لديك إحساس، وقت الحرب، أنه ستأتيك في لحظة ما ورقة نعيه؟

كنيسة سيمونوف في بوريفتس كانت تنهض فوق تل لفحته الشمس، تحيط به أشجار البتولا والصفصاف العتيقة. أذكر كيف حطموا قبتها. حدث هذا في زمن بعيد، قبل الحرب. كنت وأختي نقف مع مجموعة نساء قليلة العدد، ينظرن إلى الأعلى برعب مكتوم. اصطحبتنا إلى هناك معلمتنا مدام إيجيني، وهي سيدة بدينة خرقاء من ليون، ذات عينين شريرتين جاحظتين ورقبة قصيرة. كانت تحمل في يدها كوزاً ورقياً، مليئاً بنمل لامع بني. وكانت تهددنا بأنه في حال عصيان أوامرها فإنها ستفرغ محتوى الكوز في ظهورنا.

كان ثمة رجال يصعدون إلى سطح الكنيسة وهم يتصايحون. أحدهم كان يجر خلفه حبلاً طويلاً وغليظاً. عندما وصلوا إلى قمة السطح أحاطوا بإحدى القبب وراحوا يلقون الحبل فوق أسطوانته القرميدية المزركشة. اقتربت أكثر ووقفت خلف جذع شجرة بتولا معوج. وعبر فرجة بين الناس الواقفين حولي لمحت، للحظة، وجه المعلمة القلق.

«اصنع أولاً دخان المدافع ممزوجاً في الهواء بالغبار الناتج عن حركة خيول المتحاربين. هذا المزيج ينبغي أن تجعله كما يلي: الغبار، باعتباره شيئاً ترابياً وثقيلاً، ورغم أنه يصعد بسهولة بسبب من دقته، ويختلط بالهواء، إلا أنه وبالسهولة نفسها يعود إلى أسفل. ويصعد إلى الأعلى بشكل خاص الجزء الأخف منه، بحيث يكاد يكون غير مرئي، وتأخذ نفس لون الهواء تقريباً. الدخان الممتزج بالهواء المغبر، عندما يصعد إلى علو محدد، سيبدو وكأنه عتمة قاتمة، وفي الأعلى سيبدو الدخان مرئياً بوضوح أكثر من الغبار..»

سمعت صوت امرأة تبكي في مكان ما بالقرب مني. تلفتت، ولكنني لم أعثر على الباكية وسط الجمع. كان صوتها يتوارى مع صراخ رجل هرم في

سترة عسكرية خضراء، كان يلوح بيديه، ويسير بمحاذاة جدار الكنيسة، معطياً الأوامر.

العمال الواقفون في الأسفل التقطوا طرفي الحبل الملقين من السطح وربطوهما بأسفل جذع شجرة البتولا التي كنت أقف قربها.

العجوز الراكض دفعني جانباً. أدخلوا بين طرفي الحبل عتلة وراحوا يديرونها كالمروحة قدر استطاعتهم.

«من تلك الناحية التي يسقط منها الضوء، هذا المزيج من الهواء والدخان والغبار ينبغي أن يبدو زاهياً وساطعاً أكثر من الناحية المقابلة. وكلما ابتعدنا في عمق هذا المشهد المضطرب فإن المحاربين سيبدون أقل وضوحاً، ويتلاشى الفارق بين ألوانهم وظلالهم. أما الأشخاص الموجودون بينك وبين الضوء، وخاصة إذا كانوا بعيدين في العمق فسيبدون قاتمين على خلفية ساطعة، وستكون أقدامهم مرئية بوضوح أقل، كلما كانت أقرب إلى الأرض، وذلك لأن الغبار هناك سيكون أكيف وأسمك..»

فجأة ومثل أفعى واثبة، التف الحبل على نفسه مرتفعاً عن الأرض مشكلاً عقدة بدأت تتطاول وتشتد. وفي هذه اللحظة رفعت رأسي للحظة ورأيت القبة البيضاء العالية والصليب الذي يعلوها، بلا حراك. فوق جرس الكنيسة كان ثمة غربان مضطربة تحوم مصدرة نعيقاً رناناً.

أحد الرجال الواقفين قرب الشجرة أطلق صرخة ما ثم ارتمى فوق الحبل المشدود. لحق به الرجال الآخرون وفعلوا مثله. لقد ألقوا بأجسادهم فوق الحبل الملتوي، وبدؤوا يهزونه بانتظام، متأرجحين فوقه، حتى بدأت قاعدة القبلة

بالاستسلام. بدأ الطلاء يتشقق، وراحت ألواح القرميد تتهاوى، وأخذ الصليب يميل إلى جانب.

«... الهواء ينبغي أن يكون مكتظاً بالسهام وفي أوضاع مختلفة: سهم صاعد، وآخر هابط وثالث ينطلق في خط أفقي. وينبغي أن يصاحب مساراتها شيء من الدخان، في أثر طيرانها. لدى الأشخاص المتقدمة اجعل الشعر مغبراً، وكذلك الحواجب والأمكنة الأخرى القادرة على الإمساك بالغبار.

اجعل المنتصرين يركضون بحيث يتطاير شعرهم وثيابهم مع الريح. واجعل حواجبهم مقطبة. وإذا أردت لأحد ما أن يسقط، فارسم أثر الجرح على الغبار المتحول إلى طين مدمى، وعلى الأرض الرطبة نسبياً أظهر آثار أقدام البشر وحوافر الخيول التي مرت من هنا..»

وهكذا في البداية سقطت القبة كلها على السطح الحديدي، ثم هوت شظايا القرميد على الأرض مصدرة قعقعة مدوية، ناثرة في الفضاء سحابات من الدخان، ورحت أمسح دموعي بكفي وأنا أسعل وأكاد أختنق، دون أن أستطيع رؤية شيء. مرة أخرى هوى شيء جديد، وهو يحطم أغصان البتولا الطويلة الممتدة إلى الأرض، وارتطم بالتراب وهو يصر ويئن، مثيراً زوبعة من غبار الكلس، حملتها الرياح القادمة من الفولغا ونثرتها بين ذرى الشجر.

«.. اجعل أحد الخيول يسحب فارسه القتيل، بحيث يترك خلفه في الغبار والدم آثار الجسد المسحوب.

اجعل المنتصرين والمهزومين ممتقعي الوجوه وارفع حواجبهم عند نقاط التقائها ببعضها، واجعل الجلد فوقها مجعداً على شكل ثنيات كثيبة.. واجعل الآخرين يصرخون بأفواه مفتوحة عن آخرها، وهم يركضون. وانثر مختلف

أنواع الأسلحة بين أقدام المقاتلين... واجعل قسماً من الموتى مغطى إلى النصف بالغبار، وقسماً آخر مغطى بالكامل.

إن الغبار عندما يمتزج بالدم المراق يتحول إلى طين أحمر، والدم الذي يسيل متعرجاً من الجسد إلى التراب، يأخذ لون الغبار.

واجعل قسماً ثالثاً يحتضر وهو يكزُّ على أسنانه مطفأ العينين، جامعاً قبضته عند الصدر وثانياً ساقيه..»

قادوني إلى ظل بارد على الجهة المقابلة للكنيسة. رقدت في العشب مغمض العينين، وسمعت مدام إيجيني تصرخ بأحدهم، عبر قعقعة الهيار المبنى:

- أأتوني غتاء.. من فدلكم.. أأتوني غتاء..

ولكن أحداً لم يكن يفهم ما تقوله، وظلت مصرة على المطالبة بأن يعطيها أحد ما غطاء، لأنها لم تكن لتسمح بأن أرقد هكذا على الأرض العارية. ثم أرقدوني على مشمع ما، وجلبوا قدح ماء، وراحت مدام إيجيني تفتح بأصابعها المرتبكة جفني وتدلق الماء في عيني، فانفلتت منها.

- الآن يا عزيزي.. الآن.. — قالت

وتعالت في الجانب الآخر من الكنيسة أصوات صاخبة وغاضبة، وكانت الأحجار تتساقط كذلك بصوت منخفض، وكان الهدير والصخب يزدادان باستمرار.

«.. إنك تستطيع أن تظهر الحصان، الذي يعدو بسهولة، وعرفه مشعث بسبب الرياح، بين الأعداء محدثاً بأرجله ضرراً كبيراً. إنك تشير إلى ذلك المشوه الذي يسقط على الأرض متستراً بترسه وإلى العدو الذي انحنى محاولاً

قتله. يمكن إظهار الكثير من الأشخاص الذين سقطوا بصدورهم على الحصان الميت. إن سترى كيف أن بعض المنتصرين يتركون القتال ويخرجون من الحشود وهم ينظفون أعينهم ووجناهم بكلتا يديهم من الأوساخ التي تغطيها. والتي تكونت من الدموع المنبثقة من العيون بسبب الغبار...»

سمعت كذلك من جانب الطريق خوار القطيع الذي يقترب، والذي ساقوه حتى الظهيرة، وأصوات سياط الرماة الطويلة ذات النهايات الشعرية.

وكانت المربية تصب الماء في عيني دائماً.

وأخيراً نظفت يديها وقالت بصوت منخفض، وهي تبتسم بالقرب.

- كارل ايفانوفيتش، كارل.. ايفانوفيتش... من المستحيل أن لا تقرأ هذا...

«وأنا كنت جندياً، وحملت العتاد العسكري..» — عبست وكررت بصوت منخفض تماماً: «وأنا كنت جندياً...»

وبعد ذلك، وبعد أن هدأنا تماماً، وقفت من جديد على مسافة آمنة من الآجر الساقط من الأعلى وأنقاض البناء، ورأيت كيف أن بقرة جارنا ذات القرن الواحد، الخائفة من الضجة، ومن كثر الناس، ومن تكسير الأشجار، قد اندفعت فجأة إلى نفس الدغل الذي يحدث فيه كل ذلك، وأسقطت غصن شجرة بتولا وقع عليها من الأعلى مصدراً ضجيجاً، وقد انهارت كقتيلة على الأرض وهدأت، حتى أنها لم تحاول النهوض. كانت القبب تستلقي عند قواعد أشجار البتولا المحطمة والمتشققة. كانت موزعة وتختلط عليها مخلفات الطيور، وصلبان ملوية تتشابك معها الغصون ذات الأوراق المصقولة، والتي ترتعش في

شمس تموز الساطعة.. وقد وقفت حول الكنيسة فلاحات كن يصلين ويمسحن دموعهن.

«...إنك تظهر كذلك الرئيس، الذي يجري مع صولجان مرفوع نحو الفريق الاحتياطي كي يريهم ذلك المكان حيث هم ضروريين. وكذلك النهر، وكيف تجري فيه الأحصنة مثيرة في الماء الموج المزبد، وكيف يتناثر الماء المعكّر في الهواء بين أرجل وأجسام الجياد. لم يبق مكان واحد ممهد سوى مواطئ حوافر الخيل التي كانت مملوءة بالدم...»

استلقت البقرة بالقرب من طوبة ساقطة وكانت تحرك أرجلها. اقترب من البقرة عجوز راكض ومهتاج بسترة عسكرية مغبرة لقد كان هذا العجوز هو المشرف على الهدم، وقبل كل شيء أزال الغصن الذي يغطي الرأس. وجلس القرفصاء بعد ذلك، وبمقدرة ودون استعجال لامس بأصابعه أثداءها، وتنهد ثم بدأ بحلبها بشدة بشكل اعتيادي وبرجولية. إن التدفق المتوتر للحليب ونشيشه قد اصطدما بالأرض.

وإذ أنهى العجوز الحلب انتصب بصعوبة وابتعد جانباً، نافضاً الحليب عن سترته العسكرية التي تحميه. نهضت البقرة وبثقل وبصورة غير مريحة، ووقفت قليلاً منكسة رأسها، وتمايلت، ومشت متثاقلة إلى أسفل المنحدر.

نظرت في أثرها، ودوت في أذنيّ كالصدى كلمات لم يمض إلا القليل على التلفظ بها ولا أدري لماذا بصوت رجولي: «وأنا كنت جندياً... وأنا كنت جندياً...»

ما هو حسب رأيك، الطبع الروسي؟ كرامته ونواقصه؟

من هو عازفك المفضل؟

لماذا؟

وثبت الأم من سلم الترامواي وجرت عبر الشارع. كانت دون معطف وبعد دقيقة تبللت تماماً.

أصلحت شعرها المبلل وهي تقترب من المطبعة ودخلت إلى غرفة المرور. وقد تفحص الحارس وهو صامت جوارها. قالت الأم بنفاذ صبر: «إنني مسرعة...»

أراد الحارس أن يعترض عليها بشيء ما، ولكنه إذ نظر إلى ثيابها المبللة وبوجه ضامر قال: «أجل، العمل بالطبع هو الشيء الرئيسي الآن...»

خرجت راكضة عبر ممر غير كبير إلى فناء داخلي. الباب مقابل درج إلى الطابق الثالث، فباب غرفة المصححين نصف المفتوح... وفي الغرفة الفارغة كانت ميلوتشكا فقط هناك، وهي فتاة شابة تماماً ومنهكة، وقد استدارت بهلع عندما دخلت الأم إلى الغرفة راكضة.

- ماذا يا ماريا نيكولا يفنا؟

- أين النشرات التي وجدتها اليوم أثناء المطالعة؟

ألقت الأم بنفسها على مكتبها.

- لا أعرف... فأنا منذ أسبوع فقط...- همست ميلوتشكا تقريباً، وقد فهمت أن شيئاً ما قد حدث — أنا الآن...

وأفلت هاربة من الغرفة.

تعلقت الأم دون جدوى برزمة المسودات وتفحصتها بعجلة وقالت شيئاً ما محركة شفتيها بلا صوت.

دخلت إلى الغرفة امرأة كبيرة سمينة. وكانت ميلوتشكا تتطلع من وراء ظهرها.

- ما روسيا ماذا؟...بشكل خاص في النشرات الصباحية؟... في مجموعة المؤلفات؟

تكلمت المرأة بشكل غليظ تقريباً وبصوت مبحوح قليلاً من القلق وفجأة صرخت، ولكن بطيبة وبتعاطف: - لا تضطربي!... يا ماشا!..

- هذا يعني، أنهم في العمل — قالت الأم بهدوء تقريباً وحكّت فودها بأصابعها. — إني تأخرت على ما أعتقد.

- بالطبع، إنهم يطبعون منذ الساعة الثانية عشرة، - يا للفرح الكبير هكذا قالت ميلوتشكا.

توجهت الأم نحو الباب، إلا أن اليزابيث بافلوفنا أوقفتها:

- لكن هذا ليس مصيبة.. إنك عبثاً تفقدين أعصابك!

فتحت بعد ذلك هذه المرأة القديمة الباب أمام الأم وكررت:

- ليست مصيبة

سارتا صامتتين في الممر الفارغ، وفجأة أخذت ميلو تشكي تبكي.

- اخرسي. أيتها البلهاء! — قالت اليزابيث بافلوفنا بعبوس ووضعت يدها على كتف الأم.

- ولكن في نفس الإصدار... هذا نفس الإصدار، - دمدمت ميلوتشكا التي تسير وراءهن.

- حسناً وماذا؟ أي إصدار خاص ذاك؟ إن أي إصدار يجب أن يكون دون أخطاء! — قالت اليزابيث بافلوفنا بحدة.

- أي إصدار، -وكررت الأم كصدى لكلامها.

دخلت أولاً إلى الورشة، وبسرعة، وإذ سبقت اليزابيث بافلوفنا وميلوتشكا، توجهت إلى قرب آلة الطباعة في تلك الزاوية حيث كان يجلس خلف المكتب عجوز نحيف بلحية طويلة.

- يا إيفان غافريلوفيتش... -ولم تستطع أن تتكلم بعد ذلك.

تجمع حولها عمال التنضيد.

- حسناً، - قال إيفان غافريلوفيتش فجأة وبهدوء وهو يأخذ نفساً، - حسناً ماذا، هل أنت محتارة؟ راجعت أخطائك. هل وجدت خطأ آخر؟

هل هناك شيء خطير؟

ماروسيا؟...

- كلا، لا يوجد أي خطر بالطبع، - سمعت الأم كي تكون هادئة — أنا أريد ببساطة أن أنظر، ربما أخطأت، وربما لم أخطئ...

- هاهو بالضبط، كل شيء حسب الترتيب، يا ماشا - تدخلت اليزابيث بافلوفنا والتفتت باتجاه عمال التنضيد المجتمعين بقربهم، وسألت:

- حسناً؟ ماذا حصل؟...

ابتعد البعض، وقال أحد ما:

- لقد حصل ما حصل...

فقدت الأم صوابها تماماً لدى سماعها هذه الكلمات.

- يا إيفان غافر يلوفيتش، أنا أريد أن أقول فقط...أن أسأل - هل هم في العمل أم لا يزالون عندكم؟

- في المطبعة، - صعد إيفان غافريلوفيتش دون استعجال. — حسناً، لنذهب، من المؤلم حقاً أن يتم كل شيء فوراً، كل شيء فوراً كل شيء في الوقت نفسه...

- من الأفضل أن أذهب وحدي — قالت الأم ذلك وبسرعة ذهبت إلى المخرج. بدا لها أن مشيتها بهذه الطريقة تجعل منها شجاعة ومستقلة. ولكن ذلك بدا بشكل آخر.

- يا ماروسيا، - قال إيفان غافريلوفيتش بصوت منخفض، ولكن بجدية.

توقفت الأم.

- هل تظن أنني أخاف؟ — سألت الأم.

- لكنني أعرف أنك لا تخافين، - أجاب العجوز بهدوء، ليخف الآخرون، ليكن الأمر هكذا — أحد ما سيخاف، وآخر سوف يعمل.

دخلت الأم مع إيفان غافريلوفتش إلى ورشة المطبعة، أما اليزابيث بافوفنا فقد بقيت عند المدخل.

أوقف إيفان غافريلوفيتش الأم وسأل بهدوء شخصاً مربوعاً وقصيراً في رداء مكوي بإحكام عن شيء ما، وهو يقترب منه. تعانق ذلك الشخص مع إيفان كان يمكن من حركة إيفان غافريلوفيتش فهم رغبته بأن يطلق شتيمة. وإذ

ألقى نظرة شاملة على الصالة الضخمة، فقد توجه بشكل حازم نحو طرفها بالقرب من النافذة، وباتجاه آلة الطباعة.

أصلحت الأم ثيابها، وتحركت بسهولة وبخطوة عملية وهي مقطبة وراءه.

تفحصت الأم التصحيحات. واستدارت بشكل مفاجئ وحاد وقد أخفضت رأسها وذهبت بسرعة نحو المخرج. سارت طويلاً، عبر كل هذه الصالة، وبالقرب من الآلات الطباعية الضخمة والهادرة، بالقرب من الأطر التي ترتفع وتنخفض بصورة رتيبة، والتي ترمي الأوراق ، وبدون أن ترفع رأسها، مرت بشكل سريع قرب اليزابيث بافلوفنا، وبالقرب من عمال التنضيد الذين يتراجعون نحو الحائط، وخرجت من الباب، وألقت بنفسها في الممر الطويل باتجاه غرفة التصحيح.

انغلق الباب الزجاجي خلفها بشدة مصدراً دوياً قوياً.

– حسناً؟ — سألت اليزابيث بافلوفنا بصوت منخفض وقد ظهرت على العتبة.

– لكن هل حدث شيء؟ هل كل شيء على ما يرام؟

وبالرغم من أن الأم لم تجب بشيء، بيد أن اليزابيث بافلوفنا فهمت من حركتها الضئيلة غير الملحوظة، أنه لم يحدث أي شيء بالواقع.

– إذاً لماذا تبكين أيتها الغبية؟ — تكلمت اليزابيث بافلوفنا، وهي تعانق الأم، ولكن كان الكلام بالنسبة لها صعباً أيضاً.

– حسناً، لا تغضبي... لا تغضبي... لا تغضبي، – تكلمت، وقد تناثرت الدموع على وجهها الممتلئ والمحمر.

كانت ميلوتشكا قد ألقت نظرة على غرفة التصحيح، ولكنها اختفت هنا وراء الباب.

كلا، يا ليزا، لكان ذلك خطأً وحشياً! حتى يمكن القول سوء أدب،- ضحكت الأم فجأة، بالرغم من أن الدموع كانت تنساب من عينيها.- وفجأة أضجرني هذا... تصوري، حتى أقنعت نفسي، كيف أن ذلك عبث.. كيف تبدو هذه الكلمة.

والآن وقد ضحكت اليزابيث بافلوفنا، تكلمتا في وقت واحد، مقاطعتين بعضهما البعض، وغير مصغيتين لبعضهما البعض أيضاً، آخذتين تارة في البكاء وتارة في الضحك.

فتح الباب، ودخل إيفان غافريلوفيتش ووضع وهو صامت زجاجة على الطاولة.

- كحول.. هنا القليل، لكن يفي بالغرض. لقد جففتِ تماماً. انظري إلى أي شيء تشبهين... إلى مومياء...

- يا إلهي، -فجأة وكأنها عادت إلى رشدها قالت الأم- إنني جففت تماماً.

اقتربت من النافذة حيث كان يصخب خارجها وابل من الأمطار، ويتلاقى ضجيجها مع هدير آلات المطبعة الثقيل والترتيب، والتي كانت تشغل خلف النهر شقة كاملة...

الأم: لعلي سآخذ حماماً سريعاً. أين المشط؟

أليزابيث بافلوفنا: يا إلهي، هل تعرفين. من تشبهين؟

الأم: أشبه من؟

أليزابيث بافلوفنا: إنك تشبهين ماريا تيموفييفنا.

الأم: أية ماريا تيموفييفنا؟

أليزابيث بافلوفنا: لـــ !

الأم: ماذا «لـــ»؟

أليزابيث بافلوفنا: حسناً هل تفتشين عن المشط؟ إليك!

الأم: (غاضبة) اسمعي، ألا تستطيعين أن تكوني طبيعية؟ أية ماريا تيموفييفنا؟

أليزابيث بافلوفنا: حسناً كانت هناك ماريا تيموفييفنا ليبيادكينا. شقيقة النقيب ليبيادكين، وزوجة نيكولا فسيفولودوفيتش ستافروجين.

الأم: ولكن لماذا كل ذلك هنا.

أليزابيث بافلوفنا: كلا، أردت أن أقول فقط، إنك تشبهين ليبيادكينا بشكل عجيب.

الأم: (مستاءة) حسناً لنفرض ذلك، لكن بماذا أشبه بالضبط؟

أليزابيث بافلوفنا: كلا، إلا أن فيدور ميخايلوفيتش... لماذا أنت لا تتكلمين هنا...

الأم: ماذا «لا أتكلم»؟

أليزابيث بافلوفنا: (إذ تصبح صاخبة). «ليبادكين اجلب الماء، ليبادكين ناولني الحذاء!» يكمن الفرق في أن الأخ لا يجلب لها الماء، ولكن

يضربها ضرباً مميتاً. أما هي فتفكر أن كل شيء يحدث بناءاً على إشارتها.

الأم: (تظهر الدموع في عينيها) توقفي عن السرد واشرحي لي. أنا لا أفهم.

أليزابيث بافلوفنا: (تبدأ بالانفعال) أجل كل حياتك - هي «اجلب الماء» أجل «ناوليني الحذاء» ما الذي يخرج من ذلك؟ هل هو مظهر الاستقلال؟! أجل لأنك لا تستطيعين أن تحركي إصبعاً... إذا لم يرضك شيء ما- فإما أن تتظاهري أنه غير موجود أو تشمخين بأنفك. إنك مستقيمة جداً.

الأم: (تنهمر الدموع من عينيها) من يضربني؟ ما هذا الذي تقولينه؟

أليزابيث بافلوفنا: كلا أنا مندهشة فقط من صبر زوجك السابق! حسب تقديراتي كان يجب عليه سابقاً أن يقنعك بقدر أكبر! وبسرعة!

الأم: (ملتفتة إلى الوراء بقنوط كامل) إنني لا أفهم ماذا تريدين مني؟

أليزابيث بافلوفنا: ولكن هل تعترفين بالخطأ في وقت ما، حتى ولو كنت مذنبة؟ أجل أحياناً في الحياة! كلا إن هذا وببساطة مدهش! ألم تخلقي بيديك أنت كل هذه الحالة. يا إلهي! إذا لم تقدري على إيصال زوجك المثار إلى حالتك العبثية المتحررة، فإننا سنعتبر، أنه قد نجا في الوقت المناسب! أما بالنسبة للأطفال، فإنك ستجعلين منهم وبقدر محدد تعساء! (تبكي).

الأم: (هدأ) كفى جنوناً!

تأخذ من درج الطاولة صابونة، وليفة، ومنشفة، وتتوجه نحو الباب.

أليزابيث بافلوفنا: يا ماشا! بالله عليك ما هذا!

الأم: (وهي تغلق الباب) اتركيني بهدوء!

أليزابيث بافلوفنا (بعدم ثقة في إثرها)

ها قد مضت الحياة الدنيوية حتى منتصفها

وأنا تائه في غابة مظلمة

هل ارتكبت أخطاء في حياتك؟ ما هي هذه الأخطاء؟

هل تتكلمين الحقيقة دائماً؟

ما الذي يستطيع أن يفرحك أكثر من أي شيءٍ آخر؟

ما هي السعادة؟

هل تكونين راضية لو كان أولئك الذين تحبينهم سعداء ولكن بشكل مغاير لمفهومك عن السعادة؟

وإذا كان الجواب بالنفي، فلماذا؟

هل يخيفك العلو، أو الصقيع، أو العاصفة، أو الظلام؟

اعذريني على هذه الأسئلة العديدة غير اللبقة، هل كان في حياتك شيءٌ ما تخجلين منه حتى الآن؟ ماذا كان هذا الشيء؟

هل كنت في موسكو، عندما انتهت الحرب، وجرت احتفالات العيد؟

ماذا فعلت في ذلك المساء؟ فلتتذكري بدقة أكثر إذا استطعت.

هل فكرت بأن القسم الأكبر من حياتك المعاشة هو الأفضل، وأنك الآن امرأة مسنة؟

هل سعيت ألا تفكري بمثل هذه الأشياء؟

هل حدث في أحد الأوقات أن جاء العام الجديد وأنت نائمة؟ أو لم تكوني في البيت، ولكن في مكان ما في الطريق إليه؟

هل يفرحك الوقت الحالي أكثر أم مرحلة الشباب، أم الطفولة؟

ما هي أحب الأشياء إليك؟

أو الأبيات أو الرباعيات؟

ألم يبدُ لك، أنه عندما يفرح الناس، فإنك تشعرين بنفسك مهمشة بينهم؟

هل تستطيعين أن تكوني فرحة؟

ألم ترغبي الموت لأحد ما من معارفك؟

أنا لا أتكلم هناك عن هتلر، أو عن القاتلين أو الساديين.

هل تحسدين الشباب؟ الشباب الطبيعي الصحيح. ورشاقته وجماله ولامبالاته، مع التصورات الطفولية تقريباً والساذجة أيضاً عن العالم، ولكن الظاهرة والمقدسة؟

شقة كبيرة مهجورة في أحد أزقة أرباط.

عند المرآة – تقف ناتاليا وهي زوجة المؤلف. في عمق الممر، عند رف الكتب– ايغنات ابنهما. هدوء.

المؤلف: ماذا نسيت؟ إنني أتكلم دائماً، إنك تشبهين أمي.

ناتاليا: حسناً، ربما لذلك افترقنا. إنني ألاحظ بهلع، كيف يصبح ايغنات مشابهاً لك أكثر فأكثر.

المؤلف: صحيح؟ ولكن لماذا هلع؟

ناتاليا: هل ترى يا الكسي الكساندروفيتش إنني لم أستطع التكلم معك بإنسانية.

المؤلف: حتى عندما أتذكر ببساطة! الطفولة، والأم، فإن عند أمي ولسبب ما نفس وجهك دائماً.. بالمناسبة، إنني أعرف لماذا، وللأسف أنتما الاثنتان على وتيرة واحدة. أنت وهي.

ناتاليا: (ساخطة). لماذا للأسف؟

يظهر ايغنات في الباب مع كأس خمر في يديه.

المؤلف: يا ايغنات لا تتحامق. ضع الكأس في مكانه. (لناتاليا) هل أردت أن تقولي شيئاً ما؟

ناتاليا: إنك لا تستطيع أن تعيش مع أحد ما بشكل طبيعي.

المؤلف: ممكن تماماً.

ناتاليا: لا تسخط. إنك ببساطة ولسبب ما مقتنع، أن حقيقة وجودك نفسها بالقرب يجب أن تسعد الجميع... أنت تطلب فقط...

المؤلف: حسناً هذا صحيح على ما أعتقد، لأن النساء ربينني.بالمناسبة، إذا لم تريدي أن يصبح ايغنات مثلي تزوجي بسرعة.

ناتاليا: ممن؟

المؤلف: هذا ما لا أعرفه. أو أعطني ايغنات.

ناتاليا: لماذا لا تتهاون م أمك حتى الآن؟. ألست أنت المذنب.

المؤلف: أنا؟ مذنب؟ بماذا؟ بأنها أوحت لنفسها، أنها تعرف أفضل مني كيف أعيش؟ أو كيف تستطيع أن تجعلني سعيداً في نهاية المطاف؟

ناتاليا: (وتبتسم باستهزاء) أنت؟ سعيد؟

المؤلف: حسناً، وفي جميع الأحوال، وبالنسبة لما يتعلق بي وبأمي، فأنا أشعر بشكل حاد بكل شيء أكثر منك أنت التي تقفين جانباً.

ناتاليا: ماذا، ماذا، ماذا؟ أنت تشعر بشكل مرهف أكثر؟!

المؤلف: أما وإننا نبتعد عن بعضنا البعض وبما أنني لا أستطيع فعل شيء مع هذه (المسافة)، فأصغي إلي يا ناتاليا، يجب عليّ إذاً أن أرحل الآن.

ناتاليا: جيد، حسناً. لقد أردت أن أطلب منك شيئاً. لدينا الآن تصليح في الشقة، ايغنات يرغب كثيراً أن يعيش معك أسبوعاً. كيف تنظر إلى ذلك؟

المؤلف: حسناً، بالطبع، بارتياح. سأكون مسروراً.

ناتاليا: تبتسم ابتسامة خبيثة.

إننا نسير في ممر أملس وصلب. قدماي في حالة تشقق دائمة وتحكني بشكل لا يحتمل. تبدو الطرقات الضيقة وكأنها تجري بين أشجار القراص العالية، المتشابكة مع خيوط العناكب، حيث تلتصق بها الأوراق المتساقطة لشجرات بطم الشمال.

تسير أمي في الممر المجاور وقد وضعت يديها على بطنها وضمت مرفقها. إنها تنظر نحوي بقلق بين فترة وأخرى. فوقنا غمامة والبعوض ينتشر.

خرجنا إلى المرعى الذي داسته وأزالته أقدام المواشي. تعرج عجوز حدباء بمعطف مبلل باتجاه القرية وهي تسوق عجلاً وتستحثه.

تسألها الأم عن الطريق. تقلّب العجوز راحتها في منديلها وتتفحصنا باهتمام من الرأس إلى القدم.

كان وجهها الصغير بعيونه الحية مسمراً من أشعة الشمس، وحدها تجاعيده العميقة بقيت بيضاء.

- هل إيلي متوعك؟ ومن أين أنتم؟

- نحن معارف فقط -تجيب الأم وهي تصلح ياقة القميص المبلل- نحن ضيوف، أي بعمل... - تبتسم وهي تعرض عنا، وتنظر باتجاه القرية.

- ها قد وصلنا حقاً، ها هو تحت أشجار البتولا، جدران خمسة متطرفة، فوق الشاطئ.... أسرعوا فقط، فأنا سمعت أن الدكتور قد أزمع الذهاب إلى المدينة.

- أنسير على الشاطئ هكذا؟ تنتعش الأم، وهي تسعى للتكلم بالطريقة القروية.

- هكذا وسوف تصلين -تغمغم العجوز وقد فقدت أي اهتمام بنا.

توجهنا نحو الدغل الذي يتراءى في الأمام فوق منعطف النهر.

- ماما، ما هي الجدران الخمسة؟ أتساءل.

- ببساطة بيت فلاحي كبير بجدران خمسة -تجيب الأم، وفجأة زلت وانزلقت- ليأخذك الشيطان قالت ممتعضة.

- كيف بخمسة؟ أسأل أنا.

ترفع الأم من الأرض غصناً وترسم على الممر مستطيلاً.

- لماذا تنظر إلي؟ انظر هنا. هنا أربعة جوانب في هذا المستطيل. هذا بيت فلاحي عادي، ولكن إذا كان هناك جدار آخر أيضاً في الوسط، فإن ذلك هو المترل ذو الجدران الخمسة – تقطع الأم المستطيل بالغصن.

أبتسم أنا.

- ما الذي يفرحك؟ تتكلم الأم وهي مقرورة وقد تدثرت ببلوزة مضادة للبرد – آه يا الكسي...- تتنهد- حسناً، هل فهمت الآن؟ هل فهمت ما هي الجدران الخمسة؟

- أجل –أجيب أنا– لقد عرفت ذلك أنا نفسي، ولكني نسيت.

وقفنا طويلاً على سقيفة رطبة. لم يستجب أحد على دقات الأم.

لقد أظلم كل شيء، وكل ما يحيط بنا غرق في الضباب البارد، والذي كان يتراءى من خلاله في هذا المكان نهر واسع وصغير وشجرات البتولا الساكنة والمتجمدة.

- يا الكسي، حسناً اذهب وانظر في الجانب الآخر. ربما كان هناك أحد ما؟

نظرت الأم إلي باهتمام وفهمت أنني لا أرغب بأي شكل من الأشكال الذهاب إلى أي مكان والنظر هناك، لأنني كنت خائفاً جداً من أن أرى "أحداً ما". شعرت بحر شديد وأنا ضائع بالإضافة إلى خدوش في قدميّ وأكمام سترتي مبللة.

- يا إلهي، توقف عن حك نفسك، لقد قلت لك ذلك ألف مرة! – قالت الأم– تعالي من الأفضل أن نقرع الباب بشدة أكبر. وفي إحدى

المرات بالكاد دقت... تفكرين بأنهم سيأتون راكضين هكذا — أجبت وأنا أنظر إلى الأم متوسلاً.

- إذن قف هنا، وأنا سأذهب من الجانب الآخر.

ومن جديد خفت. تصورت أن أمي عندما ستختفي خلف الزاوية، سيفتح الباب، ودون أن أعرف ما أقول، سأنظر إلى الدكتور سولوفييف الذي ظهر على العتبة.

نزلت الأم من السقيفة وسارت في ممر رائع في الضباب، وعندما بدأ يدوي فجأة قفل حديدي، ألقيت بنفسي وراءها، ولحقت بها وقلت وأن ألهث:

- أماه، إنهم يفتحون هناك...

- ما بك؟ — سألت الأم ساعيةً أن تكون هادئة، وهي تعود إلى السقيفة.

وقفت في فتحة الباب المضيئة امرأة طويلة شقراء في لباس حريري لازوردي. نظرت إلى أمي وبلعت لعابي.

- قالت الأم — مرحباً— وابتسمت وكأنهم كانوا ينتظروننا.

- مرحباً —أجابت المرأة ذات السترة الحريرية بارتباك— من تريدين بشكل خاص؟

- أجابت الأم وهي تبتسم بمزاج— أنت على ما أعتقد ناديجدا بتوفنا؟

- أجل، وماذا؟ أنا أعرفك سابقاً...

- هل ترين — قاطعتها الأم— أنا ربيبة نيكولاي ماتفييفيتش بيتروف. لقد تصادق مع زوجك على ما أعتقد. لا أعلم إن كان هناك... تململت الأم.

- نيكولاي ماتفييفيتش؟ أي نيكولاي ماتفييفيتش؟ —تيقظت المرأة ذات السترة الحريرية.

- بيتروف... نيكولاي ماتفييفيتش... طيب.

لقد عاش هنا سابقاً، في زافراجي، وبعد ذلك انتقل إلى يوريفيتس. وهناك أصبح خبيراً طبياً شرعياً —شرحت الأم بإلحاح زائد.

- ولكن أنت نفسك من أين؟ من المدينة؟

- نحن بشكل عام من موسكو. ولكن لدينا غرفة في يوريفيتس — شرحت الأم بتأن.

- إذن أنتم من موسكو؟ —تمتمت ناديجدا بيتروفنا باستنكار.

- أجل. لقد جلونا في الخريف الماضي. بدأ قذف موسكو بالقنابل. ولديَّ طفلان. أما هنا فمهما يكن توجد لدى ماما روابط قديمة. وبعد ذلك فقد نشأت في هذه المناطق.

- إن ديمتري إيفانوفيتش ليس في البيت الآن... إنه في المدينة... -فجأة بسطت ناديجدا بيتروفنا يدها ورفعتها عن كتفها. حتى أنني ابتسمت من الفرح.

- أجل أنتم ضروريون بالنسبة لي بشكل خاص. عندي لكم سر نسائي صغير — بطريقة ما، وبغير مناسبة عادت الأم. كان يلتمع في عيني ناديجدا بيتروفنا فضول مرتاب تارةً وفزع تارةً أخرى.

- حسناً تفضلوا، ما لكم تقفون... فجأة أذنت لنا بالدخول.

دخلنا في إثر ناديجدا بيتروفنا إلى البيت. وعوضاً عن الممر رأيت شيئاً ما يشبه المدخل مع أرضية رائعة ومرآة معلقة على الحائط في إطار بيضوي.

وكانت تقوم في الزاوية صناديق عتيقة، وفوق المدخل إلى المطبخ كان مصباح يعمل على الكاز معلق مع غطاءٍ بلونٍ برتقالي. وخزائن متلألئة بمقابض ومفاتيح نحاسية، ومشجب عند الباب مع دائرة غير معروفة من أجل ماذا في الأسفل. وعلى أحد الجدران الملساء كانت هناك لوحة معلقة في إطار ثقيل.

اقتربت من باب المطبخ وفتحته قليلاً بحذر. كانت ناديجدا بيتروفنا تقف عند المرآة وهي تنظر بدلال إلى نفسها مرة من أحد الجوانب ومرة ثانية من الجانب الآخر، وكانت تهتم بقرط ذهبي يتلألأ وبشيء ما أزرق.

ابتعدت بهدوء نحو الباب وجلست على الصندوق.

- تركناك هنا، أليس كذلك؟ ما اسمك؟ — سألت ناديجدا بيتروفا وهي تظهر في الباب فجأة.

- أجبت - ألكسي.

- قالت وهي تتوجه إلى الأم، أنت تعرفين، لدي ابن أيضاً. ليس كبيراً هكذا، بالطبع. آه. يا إلهي، هناك صعوبة مع الأطفال، إنها الحرب مع ذلك. ولدي رغبة أيضاً بابنه، قالت ذلك وهي تبتسم. إنه الآن في غرفة النوم. ينام. هل تريدان رؤيته؟

- ولكن ألا نوقظه؟ —ارتعبت الأم.

- لا بأس سنراه بهدوء إنه أعجوبة عندنا! لقد اقترب هنا فجأة من والده وسأل — ولكن خمس كوبيكات أكبر، وعشر كوبيكات أصغر. و لم يجب ديمتري إيفانوفيتش بشيء، ما استطاع! لقد أراد بنتاً في البداية، وحتى أنه ابتكر لها اسماً — لور. أما أنا فلقد حضرت لها أحذية

وردية: وغلافاً وشريطاً. كان عليَّ أن أعيد خياطة كل شيء. لقد خلق لنا همّاً، إنه قرصان. لقد كنا متأكدين أنه بنت.

انتقل هذا المزاج إلى أمي...

فتحت ناديجدا بيتروفنا باب غرفة النوم بحذر.

كانت هذه الغرفة كبيرة وفارغة كاملاً. كان كل شيء مظلماً، النافذة فقط كانت زرقاء، وضوء ليلي هادئ كان ينعكس على الباركيه الساطعة. كان يقوم في الوسط بين النوافذ والباب، حيث نظرنا إلى الصبي مباشرة، ليس ذلك السرير، ولكنْ شيء ما مصنوع من خشب أحمر مصقول ومن السقف كان يتساقط شلال ماء، شيء ما يشبه دخاناً أزرق خفيفاً، بأهداب طويلة مرتعشة.

تنهد الصبي فجأة وفتح عينيه.

- أيقظناك مع ذلك؟ أجل؟ عندك أم تثرثر، أجل تثرثر —استمرت ناديجدا بيتروفنا بالغناء- من أتى إلينا؟ من؟ غرباء؟ حسناً ماذا بك؟ لا تستيقظ ولا بأي شكل! حسناً، حسناً نم. نم يا كبشي، نم.

نظرت إليه وأنا فاغر فمي وعنقي مشرئب، وفي الهدوء تعالى ضحك ناديجدا بيروفنا السعيد. التفت ونظرت إلى الأم.

كانت عيناها مفعمتين بالألم واليأس مما أخافني. وقد خفت فجأة، وقالت همساً شيئاً ما لسولوفيوفا، وخرجنا عائدين إلى غرفة المدخل.

- إلها تناسبني، أليس ذلك حقيقة؟ سألتها ربة المنزل، وهي تغلق الباب وراءها — فقط ذلك القرط... كيف ترين؟ هل هو غليظ علي، كلا؟ كيف ترينه؟

ألقت الأم نفسها ني المطبخ وهي صامتة. ولحقتها ناديجدا بيتروفنا.

ناديجدا بيتروفنا: ما بك؟

الأم. أنت تعرفين، هناك شيء ما غير جيد...

ناديجدا بيتروفنا: يا إلهي، إنك على ما أعتقد قد تعبت من الطريق؟ لم يخطر ذلك على بالي مباشرة... اشربي... تدفئي. لقد استرسلت بالثرثرة كاملاً. يجب تحضير العشاء. لكن متى خرجتم من البيت؟

الأم: آه، شكراً. لا تقلقي من فضلك لأجلنا.

ناديجدا بيروفنا: حسناً، كيف أتركك هكذا.

الأم: لقد أكلنا قبل مجيئنا بفترة قصيرة.

ترامى من غرفة المدخل سعال الكسي.

ناديجدا بيروفنا: آه، لديه سعال، ليس ذلك جيداً.

الأم: إنه يعدو في كل مكان. أطفال كما تعلمين.

ناديجدا بتروفنا: يجب أن يفحصه دميتري ايفانوفيتش من كل بد. بالمناسبة سيأتي الآن.

الأم: كلا، شكراً. سوف لن نستطيع الانتظار، فنحن نسير منذ أكثر من ساعتين.

ناديجدا بتروفنا: وماذا بالنسبة للعرجون؟ النقود عند زوجي. انظري للصبي، كم هو تعب. سنذبح ديكاً الآن. لكن لدي رجاء صغير عندكم فقط. أنا في الشهر الرابع. أشعر بغثيان طوال الوقت. حتى عندما أحلب البقرة وأقترب منها. أما الديك... أنت تفهمين بنفسك، ألا تستطيعين أنت؟

الأم: (في ارتباك كامل). أتفهمين، أنا نفسي...

ناديجدا بتروفنا: ماذا، أنت أيضاً؟

الأم: كلا، ليس في هذا المعنى. ببساطة لم أقم بذلك أبداً.

ناديجدا بتروفنا: إن هذا ترهات مضاعفة... في موسكو أكلوا الأموات، وها أنا أعمل كل شيء هنا، في هذا البيت الخشبي. ها هو فأس. لقد شحذه دميتري ايفانوف صباحاً.

الأم: ما هذا، مباشرة في الغرفة؟

ناديجدا بتروفنا: نضع طستاً. غداً صباحاً سأعطيك دجاجة لتأخذيها معك. لا تفكري بأن ذلك هبة.

الأم: أنت تعلمين، أنني لا أستطيع.

ناديجدا بتروفنا: هذا هو ما يعني ضعفنا النسائي، ربما نطلب من اليوشا؟ إنه رجل مع ذلك.

الأم: كلا، ولكن لماذا اليوشا...

ناديجدا بتروفنا: (تجلب ديكاً وتضعه على قرمة شجيرة). امسكي، امسكي، امسكي بقوة أكبر وإلا سيفلت، وكل الأواني ستكسر. تعالي، آه، مع ذلك بالنسبة لي... ماذا...

الديك كان يخفق تحت يد الأم.

كان ذهابنا كأنه هروب. أجابت الأم. ليس في محله، لم توافق، تكلمت بأنها رجعت عن رأيها، وأن هذا رخيص كثيراً، أفلتت تقريباً، عندما أخذتها سولوفييفا من مرفقها وهي تغريها.

عندما عدنا، كان الظلام يخيم بشكل كامل، والمطر ينهمر.

لم أتأكد من الطريق، ووصلت المسألة إلى أنني وقعت في أشجار القراص، ولكني صمت. كانت الأم تسير بجانبي، سمعت وقع أقدامها في الغدير، وحفيف الشجيرات التي تلامسها في الظلام.

وفجأة سمعت نشيجاً. توقفت مسمراً بعد ذلك، وأنا أسعى كي أخطو بشكل غير مسموع، وأصبحت أنصت وأمعن في النظر في الظلام، ولكن لم يكن يسمع أي صوت.

في ذلك الصباح البعيد، قبل الحرب، استيقظت من السعادة. كان يدفق من النوافذ ضوء احتفالي.

كانت الشمس تلتهب بحدة. وتنعكس بشكل متقلب على زجاجة (حق) مضلعة، ويستلقي قوس قزح في المغسل الخزفي الناصع البياض الذي يقوم في الزاوية. لم يكن هناك أحد خلف الباب المفتوح.

جلست على السرير وأسدلت رجليّ، ورحت أصيخ السمع. كان هناك صدى رنان لمقبض حديدي صادر عن سطل فارغ يتحرك على مقعد، والماء الطري، وضجة ثقيلة من الشارع تصل عبر النافذة المفتوحة، من خلال ستارة مزخرفة وشجيرة لياسمينة مترلية على أرضية النافذة.

نظرت من خلال الباب المفتوح إلى الغرفة المجاورة ورأيت أحذية على الأرض بالقرب من الأريكة. أحذية مع طبقة من التراب رقيقة وأزرار بيضاء. وبالجانب كانت هناك حقيبة. وخلال برهة فهمت كل شيء. ألقيت بذقني باتجاه الباب، وأنا مشدوه من الفرح، وتوقفت على العتبة.

كانت تقف أمي بالقرب من المرآة المضاءة بالشمس البيضاء.

وصلت في الليل على ما أعتقد، وكانت واقفة الآن عند المرآة، وتجرب القرط الذي كان يتلألأ بشرارات ذهبية وفيروز متألق بشكل فريد.

هل جعت يوماً ما؟ أنت وعائلتك؟

هل شعرت بالفخر بنجاحاتك في العمل؟ هل كان لديك أصدقاء قريبون في العمل، والذين تعتبرينهم ضروريين الآن وطبيعيين بالنسبة لك، تتقاسمين معهم الهموم والأفراح؟ بماذا شعرت عندما أحلت إلى التقاعد، وخرجت لآخر مرة من بناء المطبعة؟

قولي، عندما كانت هناك صعوبات كبيرة، هل وجدت القوى للعيش لاحقاً لأنه لديك طفلان فقط؟ وأم عجوز؟

يثير منظر القطارات المارة لدى جميع الناس تقريباً الكآبة... هل يثيرك ذلك؟ ولماذا؟

ألم يبدُ لك أبداً، أنك تحبين الطموح؟ ألم تفكري أبداً: «لو كنت رئيس دولة لعملت...»؟ ما كنت ستعملين؟ أم أنك تعتبرين أن هذا يخص الرجال فقط؟

شقة المؤلف. ناتاليا وإيغنات يجمعان من على الأرض الأشياء المنثورة من حقيبتها.

ناتاليا: يا إلهي! قصة أبدية، ها أنت تسرع... أجل أنت لا ترتب، هات مباشرة هكذا، ليس هناك وقت.

إيغنات: (ساحباً يده من الحقيبة). أوه هكذا...

ناتاليا: ماذا؟

إيغنات: هكذا شيء ما يضرب.

ناتاليا: ما هذا؟

إيغنات: كأن هذا قد كان كل شيء يوماً ما. جمعت النقود أيضاً. وأنا هنا لأول مرة بشكل عام.

ناتاليا: هات النقود إلى هنا وتوقف عن التخيل، أرجوك جداً. حسناً اسمع، التقط هنا، كي لا يكون طين، اتفقنا؟ هنا، لا تلمس أي شيء من فضلك. وبعد ذلك إذا أتت ماريا نيكولايفنا، قل لها كي لا تذهب إلى أي مكان. حسناً هل اتفقنا؟

تذهب ناتاليا. وفجأة يسمع إيغنات صلصلة الأواني، ويستدير. في الغرفة امرأتان. تجلس إحداهن وراء طاولة وتشرب الشاي. من هما، وكيف وقعتا هنا —غير معروف.

الغريبة: ادخل، ادخل. مرحباً (للغريبة الثانية) يا يفغينيا دميتريفنا! فنجان آخر أيضاً للشاب حسناً؟ (تخرج يفغينيا دميتريفنا). من فضلك ناولني الدفتر، هناك، من الخزانة (لإيغنات)، على الرف الثالث من الجانب. أجل، أجل، شكراً. حسناً اقرأ لي الصفحة التي وضع عليها الشريط.

إيغنات (يقرأ): «أجاب روسوفي أطروحته حول الكنيسة الرومانية في عهد النهضة بشكل سلبي على سؤال مطروح حول تأثير العلوم والفنون على أخلاق الناس».

الغريبة: كلا كلا. اقرأ فقط ما هو معلم عليه بقلم أحمر. لدينا القليل من الوقت.

إيغنات: «بالرغم من أن ...» آه كلا – «دون شك، إن انقسام الكنيسة أبعدنا عن أوروبا الأخرى، وإننا لم نشارك بأي حدث من الأحداث العظيمة التي هزتها، لكن لدينا خصائصنا المرتبطة بنا. هذه روسيا، هذه فضاءاتها المترامية الأطراف قد بلعت الغزو. لم يستطع التتار اجتياز حدودنا الغربية، وتركنا في المؤخرة. لقد انسحبوا إلى صحاريهم، وأنقذت الحضارة المسيحية. ولأجل تحقيق هذا الهدف، كان يجب علينا أن ندير بكمال هذا الوجود الخاص، الذي وقد تركنا مسيحيين، جعل منا بالتالي غرباء عن العالم المسيحي كاملاً...

... أنت تتكلم، أن المصدر الذي اغترفنا منه المسيحية، كان غير نظيف، وأن بيزنطة كانت جديرة بالازدراء ومحتقرة الخ. آه يا صديقي، ألم يولد يسوع المسيح نفسه يهودياً، وألم تكن أورشليم فناً مجازياً من فنون عبادة الأصنام؟ وهل الإنجيل أقل إدهاشاً نتيجة ذلك. أما ما يتعلق بتفاهتنا التاريخية، فأنا لا أستطيع أن أوافقك بشكل حازم.

... و(واضعة يدها على قلبها) تساءلت، ألم تجد شيئاً ما له أهمية في وضع روسيا الحالي، شيئاً ما يعجب تاريخيي المستقبل؟... بالرغم من أنني شخصياً ملتزم بالحاكم، إلا أنني لا أعجب بكل ما أراه حولي، كالأديب –يثيرني الإنسان بخرافاته– إنني مهان،

لكن أقسم بشرفي أنني لم أرد أن أبدّل الوطن ولا بأي شيء في هذا العالم، أو أن أملك تاريخاً آخر، عدا تاريخ أسلافنا، كما أعطانا إياه الله».

١٩ أكتوبر عام ١٨٣٦

جرس في الباب

الغريبة: اذهب، اذهب، افتح.

إيغنات يفتح الباب. تقف على العتبة ماريا نيكولايفنا.

ماريا نيكولايفنا: أعتقد أنني أخطأت الباب.

إيغنات يغلق الباب بشدة ويعود إلى الغرفة: ليس فيها أحد.

إيغنات خائف.

يرن جرس التلفون. يسحب إيغنات السماعة.

إيغنات: ارحل.

المؤلف: إيغنات؟ حسناً كيف أنت هناك؟ هل كل شيء على ما يرام؟

إيغنات: أجل.

المؤلف: ألم تأتِ ماريا نيكولايفنا؟

إيغنات: كلا... أتت امرأة ما، أخطأت الشقة.

المؤلف: لو انشغلت بشيء ما هناك. لن تحدث فوضى فقط. أو أدعو أحداً ما للضيافة... ألديك معارف: شباب وفتيات؟

إيغنات: من الصف؟... إلهم حسناً...

المؤلف: حسناً ما بك؟ عندما كنت في عمرك كنت قد عشقت. من ماذا تشكو؟ أثناء الحرب جرى رئيسنا الحربي وراء من يحب أيضاً وهو مرضوض. شقراء شقراء... وشفتاها كانتا تتشققان طوال الوقت... وإلى الآن أذكر... هل تسمعني يا إيغنات؟!.

صفنا الرابع «ب» بجانب حديقة المدينة، حيث كان يقع مرمى جمعية مساعدة الدفاع الجوي والكيميائي. قادنا شاب قروي، قد جرح جرحاً كبيراً في الحرب. كان قائدنا العسكري. لم يبقَ عنده سوى قحف الجمجمة، ولذلك كان يضع على رأسه طاقية وردية من السلولويد مثقوبة بثقوب تشبه المصفاة. وقد أعطيناه بالطبع لقباً – بسيطاً وساذجاً – «المرضوض».

انقسم صفنا إلى فئتين – الفئة المحلية، وفئة المهاجرين من موسكو ولينينغراد..

– إلى اليسار! إلى اليسار! – أمر المرضوض ملوحاً بيده بمحفظة مصنوعة من جلد صناعي نحو المرمى. كان لباسه على وتيرة واحدة دائماً، بأحذية قماشية سميكة، وقميص كامد ومعطف عسكري طويل لا يعطيه أية هيئة. كانت تغطي رأسه قبعة ذات طرفين يغطيان أذنيه، مصنوعة من فرو صناعي. – ابدأ بالغناء – صرخ فجأة. كان هذا يتعلق بي. كان لدي وقتذاك صوت غنائي مرهف.

إلى اللقاء أيتها المدن والقرى

يدعونا طريق بعيد

أيها الشباب الشجعان

سنذهب مع الفجر إلى الحرب.

أخذت أزعق قدر استطاعتي، وحبست البقية أنفاسها.

إننا سنبدد سحائب العدو

ونزيل الحواجز والسدود من طريقنا

وليس للعدو مناص من الموت

ولن يفلت من قبره.

ابتسم المفوض. نظر العابرون في أثرنا بحنان.

سار شباب الصف الرابع «آ» إلى اللقاء برئاسة معلمة الرياضة نينا بتروفنا والاسكي على أكتافهم. كانت نينا بتروفنا طويلة وبدينة وشقراء مع عينين شهباوين واسعتين وأنف أخنس.

ريثما وصلنا إلى صدر المرمى المفتوح مع متراس ترابي وجدار خشبي في الخلف، وقد لصق عليه الهدف. نظر المرضوض في أثر نينا بتروفنا وكآبة غير معبر عنها على وجهه، تثير الضحك المكتوم والتهكم.

التفتت إليه وقد شعرت بنظرته إليها. وصافحته وابتسم ابتسامة خبيثة، وتابعت سيرها.

– المرضوض! هتفوا من الصف الرابع «آ».

– أضاف أحد ما من جماعتنا قائلاً — صخر غضاري- صخر غضاري-

– كل واحد إلى مكانه! قف، واحد، اثنان! — أمر المرضوض بحنق.

الجميع بهيئة الاستعداد، ما عدا أسافيف من لينينغراد، وهو مراهق ذو وجه مستطيل طويل.

استمر يضرب الأرض في الثلج بقدمه المنتعلة جزمة شتوية ضخمة وهو يقف في المكان. كانت جزمته الشتوية بألوان مختلفة —واحدة سوداء والثانية رمادية. انطلقنا بالضحك.

كشر المرضوض عن أنيابه ولوَّح بيديه وصرخ:

– قف! قف، لقد أمرتكم. هل أصابكم الصمم.

امتنع أسافيف عن ضرب الأرض برجله ونظر إلى القائد العسكري بعينيه الصافيتين. كانت تستلقي عدة حصر على الثلج. وضع العجوز الذي يلبس معطفاً قصيراً مضرباً بالقطن وملوناً على كل حصيرة بندقية من عيار صغير، ومد القائد العسكري صندوقاً من الطلقات.

اصطفت فئة من خمسة أشخاص، وظهرها نحو الحصر، وصرخ المرضوض:

– للخلف استدر! واحد، اثنان!

الجميع أداروا وجوههم إلى الهدف الملصوق على بعد ٥٠ متراً. ووحده أسافيف دار حول محوره الخاص عائداً إلى وضعه السابق، ونظر في عيني القائد العسكري.

لقد أمرت للخلف! قال القائد.

– لقد درت حولي —أجاب أسافيف بهدوء.

– هل اجتزت نظام خدمة الصف؟ هل اجتزت أم لا؟!

هز أسافيف كتفيه وقال:

- حوّل تعني بالروسية حول بالضبط، وهذا ما قمت به. الدوران حول يعني كما يبدو لي، الدوران بـــ ٣٦٠ درجة.

- كم من الدرجات أيضاً؟ تبدو له! حول!!!

دار أسافيف حول نفسه، ومن جديد أصبح وجهاً لوجه مع المرضوض.

ومن جديد بدأ الجميع بالضحك. امتقع لون القائد العسكري وشد على قبضتيه، وأخفض رأسه.

- إلى موقع النار - إلى الأمام - قال بصوت ضعيف.

صار الشباب مرتبين على الحصر. لم يتحرك أسافيف من مكانه.

- سأرسلك وراء عائلتك... - قال المرضوض وهو يقترب منه مباشرة.

- وراء أي أهل؟ ظهرت الدموع بعيني الصغير.

- وراء ما يجب أن ترسل!

- ماذا يعني موقع النار؟ لا أفهم... قال أسافيف بصوت يكاد لا يُسمع.

- حسناً، استلق على الحصيرة! - فجأة بدأ القائد العسكري يصرخ وهو يشد عنقه ويتفرج. -موقع النار- هو... هو موقع النار، هل فهمت؟

استلقى أسافيف على الحصيرة وأخذ البندقية. وتحول القائد العسكري عنه.

- نادى فجأة - يغوروف!-

– هنا! أجاب يغوروف وهو يقفز عن الحصيرة.

– لا يمتعني أنك هنا.

– لا يمتع، إذاً فلماذا ناديت — سأل أسافيف.

القائد العسكري دون أن يرف له جفن.

– استلق! من جديد أمر يغوروف.

– من المقرر التكلم "أنا"، وليس "هنا"، هل فهمت؟ ودعا مرة ثانية: يغوروف!

– أنا! من جديد أجاب يغوروف وهو يقفز على رجليه.

– حدد الأجزاء الرئيسية لبندقية توز رقم ٨.

– كعب...

– حسناً.

– فوهة...

– أنت نفسك فوهة.

– وماذا بعد ذلك؟ فوهة... –كرر يغوروف بعناد. — فوهة...

– ما هي هذه الفوهة؟

– وما هي الفوهة إذاً؟ سألتُ من مكاني.

– الفوهة هي الفوهة، هل فهمت؟

– وأنا تكلمت، إن الفوهة، تمتم يغوروف.

لوَّح القائد العسكري بيديه فقط.

حصل كل واحد على خمس رصاصات. استندت إلى مرفقي وصرت أسدد. وثب موشكا، والهدف الأسود أصبح يطفو بقعة عكرة. قمنا بإطلاق خمس طلقات.

سحب المرضوض من الجدار الأهداف واقترب منا، وقد صعَّر خده وهو ينظر إليها بانتباه، ومزقها كلها إلى قطع صغيرة ما عدا هدف واحد، ورماها في الثلج.

لو أطلقتم في الجبهة هكذا... - كان قد بدأ الكلام.

- ... لما أحدثتم ثقباً في رأس — أنهى أسافيف الكلام بهدوء.

هدأ الشباب. وابتسم المرضوض فجأة.

- هذا دقيق... - سوّى الهدف المتبقي غير المخرب ونظر إلي —أيها النصاب- قال ذلك وهو يثني علي —٤٩ نقطة محتملة —وأنت حققت ذلك- ونظر بازدراء إلى الآخرين. ها أنت، إلى أين أطلقت؟ رأيتك، إنك تظن أنني لم أرك؟ —توجه ريبيكين، الذي أصابه الرعب.

- إنك أطلقت إلى الأعلى ومن أجل... أتعرف من أجل ذلك ماذا سيكون بالنسبة لك؟

- ماذا فعلت؟ تمتم المذنب.

- كيف ماذا فعلت؟

- هناك لم يكن يوجد أحد.

- ولكن لو كان؟

– أين، هناك أشجار فقط...

– لكن لو أن أحداً ما تسلق الشجرة؟

نظرنا إلى أعالي أشجار البتولا العارية مع الأعشاش الفارغة وضحكنا باستهزاء.

ممتاز... –ابتسم القائد العسكري، وانتزع من يدي البندقية صغيرة العيار، وبجرأة رمى من الترباس الأغلفة الفارغة، وأعاد التعبئة. رفع رأسه بعد ذلك، رفع البندقية وأطلق. رفرفت الطلقة ووقعت على الثلج ملساء ناعمة. وجمد الجميع من الدهشة.

هكذا إذاً... هل فهمت؟ قال بارتباح.

أخرج المرضوض من جيب المعطف الهدف الورقي المدعوك قليلاً وذهب نحو الجدار.

دون انتظار الأوامر «إلى موقع النار – إلى الأمام» وقعت على الحصيرة بحماقة منفعلاً نتيجة الثناء، ولذلك رأيت لاحقاً من مستوى الأرض، لماذا بدا لي كل شيء مفاجئاً بشكل خاص وخطر وسخيف.

كانت تلوح للأنظار في يد أسافيف قنبلة محززة خضراء عاتمة. وخلال دقيقة كانت لدى آخر ما.. بدا أن الشباب ليس هم من يأخذها الواحد من الآخر، وإنما هي تتدحرج كشيء حي من واحد إلى آخر.

سمع القائد العسكري بسرعة قصوى أو خمّن ما رآه، وماذا يحدث وراء ظهره.

لقد لقط بنظره القنبلة في تلك اللحظة عندما نزع أسافيف الحلقة منها بسرعة ودسها في يد زيكين فقير الدم، الذي شدَّ عليها بكل قواه وهو مصاب بالهلع، ضاماً إياها باتجاه بطنه دون سبب.

- صرخ المرضوض بعصبية وبصوت مبحوح —الق بها— ووثب باتجاهه، وهو يأمل أن ينجح بترع القنبلة منه.

لم يلقها زيكين، ولكن القنبلة سقطت منه بالأحرى، وأخذت تتدحرج باتجاه الجدار.

- استلق!!! في الزاوية!!! على الأرض! — سمعت صراخ القائد العسكري الوحشي وشعرت كيف انتشر فوقي جسده لاماً المعطف الشوكي الفارغ من داخله وبلحظة كانت هناك ظلمة تثير لديك الشعور بالإقياء، الذي يتسلل إلى حلقك، متكرراً مع دقات القلب. بعد ذلك سمعت ضحكاً قصيراً محبوساً مشابهاً لضحك فتاة، وفتحت عيني. كان القائد العسكري يستلقي حاشراً جسمه في الزاوية بين الجدار والأهداف والأرض.

كان هناك ذلك التوتر في وضعيته، وكأنه لم يغط القنبلة بنفسه، ولكن كان يخنق أحداً ما حياً وقوياً.

وقال أسافيف بصوت رفيع متلعثم —إنها دون كبسولة— يجب إدراك ذلك.

ضحك الفتيان باستهزاء من جديد دون تناسق وبترقب.

نهض المرضوض قليلاً ونظر إلى أسافيف، وقد طارت قبعته نتيجة قفزته. نظر الفتيان وليس دون اهتمام يقظ إلى التجويف الزهري على الصدغ الأيسر، حيث كان ينبض الجلد اللدن.

– وأيضاً... طليعي، –قال القائد العسكري بلطف واستدار مفتشاً عن قبعته. كان الهدوء يخيم، بحيث أننا كنا نسمع كل تنهيدة مبحوحة وثقيلة للمرضوض. تكلموا أن جروحه من الشظية خفيفة.

نهض أسافيف، واستدار بحدة في جزمته الشتوية الخرماء، وتوجه باتجاه المخرج.

سار في المدينة ببطء، كشخص يعرف الثمن المبذول على كل خطوة من الجهد. تساقط الكثير من الثلج على أعتاب السنة الجديدة في يوريفيتسي، بحيث كان من غير الممكن السير في المدينة... كان الناس يتحركون في الشوارع وفي مختلف الاتجاهات وهم يحملون السطول المعلقة بالأذرع والمملوءة بالبيرة الفوارة. انفصل أسافيف عنهم في طرق ضيعة مليئة بالثلج، ولم يسمع كيف كانوا يهنئون بعضهم البعض بالعيد المقبل. لم يكن هناك أي خمر للبيع بالطبع، ولكن فيما بعد كان في المدينة معمل للبيرة، وسُمح للسكان أن يشتروا البيرة في الأعياد بكميات غير محدودة.

بعد فترة محددة كان يظهر شبحه من حين لآخر عند سور كنيسة سمعان، حيث كان يوجد في الوسط منحدر رابية. تسلق أسافيف قمتها، وتوقف – لم يكن هناك ما يصعد إليه، ولا حاجة لذلك. لم يكن هناك بالنسبة له في صعوبة هذا الصعود نجاة من الخزي والألم. وكانت البلدة في دموعه التي

تملأ عينيه تتضاعف. وأبعد، خلف النهر كان يتراح عدد قليل من معالم السهل الروسي المغطى بالثلج، إلى حد لا يمكن تمييزه، وبدا كل هذا العالم الكانوني المعتم لأسافيف الآن وهدةً قاسيةً ويأساً وعقاباً.

أحلم باستمرار مدهش نفس الحلم. كانت ذاكرتي تسعى كي تتذكر أهم شيء، وتحثني كي أعود بشكل حتمي إلى تلك الأماكن الغالية على نفسي لحد المرارة، حيث لم أكن فيها منذ أكثر من عشرين سنة.

أحلم أنني أسير في زافراج بالقرب من حرج بتولا، يلاحظ إلى جانبه حمام مهمل، قرب كنيسة صغيرة قديمة بملاط مقشر في فتحة الباب التي تُرى منها أكياس نتنة مع كلس وموازين كولخوزية مكسرة. وأرى بين أشجار البتولا العالية بيتاً خشبياً من طابقين. إنه البيت الذي ولدت فيه وحيث استقبلني خالي نيكولاي ماتفييفيتش على مائدة طعام بسماط منشًى منذ أربعين عاماً. كان هذا الحلم مقنعاً ويقينياً إلى تلك الدرجة، بحيث بدا وكأنه حقيقة واقعية.

هل تؤمنين بأن الحرب يمكن أن تبدأ من جديد؟

أنا أعرف أنك تحبين الموسيقى. قولي من فضلك هل ساعدتك بشكل فعلي في أحد الأوقات؟ هل تابعت الميلوديا خلف حركة النسيج الموسيقي، أو أنك على الأصح تنتمين لأولئك الناس الذين ينامون في صالة الحفلات الموسيقية ببساطة؟

هل تقدرين على الحقد؟ هل تذكرين الشر؟ لو قُدر لك أن تنفذي إحدى الرغبات، هل يمكن أن تكون هذه الرغبة هي الانتقام؟

هل تحبين الذهاب إلى السينما؟ هل تصدقين ما يحدث على الشاشة بسهولة؟

أي مرحلة من مراحل حياتك تعتبرينها سعيدة؟ هل تعتبرين نفسك إنساناً سعيداً؟.

أدهشني تراماواي: أحمر وفارغ تقريباً، بشبابيك مفتوحة، كتب تحتها «لا تخرج رأسك». سار مندفعاً في الطريق الدائري. جلست الأم مقابلي وهي تمسك بيديها أختي النائمة.

كان عام ٤٣. لقد عدنا إلى موسكو.

عدت إلى هذه المدينة. هناك في المهجر، بدا لي، أنني فهمت هذه المدينة.

جلست الآن حائراً وسعيداً، ورغم أنني رأيت المنازل التي كانت تظهر من حين لآخر خلف النافذة، وكذلك مصدات الدبابات في الشوارع، التي بقيت منذ عام ١٩٤١، والأهرامات المفرغة من القنابل المحرقة، وخضار الأشجار في نوافذ التراماواي، رغم كل ذلك لا أزال أشعر هنا أنني غريب.

نهضت بحذر واقتربت من النافذة المقابلة. كان يطير أمام عيني جدار كثيف من الخضار. أصبت بدوار. أغلقت عيني، وشعرت فجأة، أنني أريد كثيراً أن آكل. ولأجل أن لا أفكر في الطعام، مددت يدي من النافذة وتمسكت بغصن. وإذ عملت على انتزاعه، فإنه حرق يدي وآلمني كثيراً، وبقيت في راحة كفي آثار وسخة وعدة أوراق رمادية.

نظرت إليها ورأيت، أن الأوراق ليست هي كما هناك في يوريفيتا. عندئذ فهمت لماذا أنا بحالة سيئة. الهواء كان هنا ثقيلاً، كغبار ساكن متوهج من الشمس. وفكرت بشكل جاد، أنني على ما أعتقد سوف لن أستطيع أبداً أن أعيش في موسكو، لأنني سأختنق.

هنا شعرت أن شيئاً ما قرب أذني يندس بي. نظرتُ إلى الأم بسرعة وأنا أعرف كم ستكون متكدرة لو رأت ذلك. ولكنها كانت تجلس وهي تفكر و لم تنظر باتجاهي.

حركت يدي خلف الأذن، وقبضت على ما كان يمشي، و لم أعرف بعض الوقت ماذا سأفعل بهذا الشيء الذي أمسكته. وبعد ذلك رميته من النافذة بصورة غير ملحوظة. وألقيت الأوراق التي كنت أمسكها في يدي الأخرى أيضاً.

نهضت بعد ذلك، واقتربت من الأم ورائي بهدوء ورأيت شعرها الفاتح والخفيف يخفق من حركة الهواء.

اهتممت به بحذر...

- سألت — هل سنذهب إلى البيت الآن؟

- كلا، إلى ماريا غيورغييفنا. إنك تعرف أنهم يعيشون في غرفتنا إلى الآن.

حسناً إن الأم لم تر شيئاً. لأنه هناك في يوريفيتا كانوا يتكلمون عادة: «أصبح للقمل شريك في الحزن».

توقف الترامواي، وكانت الأم مستعجلة جداً.

- خذ الحقيبة، -قالت لي، أما هي نفسها فقد أشارت لي بعينيها وهي تمسك بيد أختي، وباليد الأخرى ترفع حقيبة أن آخذ أيضاً العقدة المتبقية.

تخلف الترامواي عن المسير، وكان السائق يرمقنا بانتباه حتى خُرجنا جميعاً.

كان شخصاً عجوزاً جداً.

هل لديك لون مفضّل؟ ولون الثياب التي تناسبك أكثر من أي لون؟

هل تسبحين جيداً؟ هل لديك رغبة في الذهاب الآن لعدة أشهر إلى البحر؟ ولو كان هناك القليل من الناس، فهل كنت تستطيعين أن لا تفكري بشيء؟ تصوري أن ذلك ممكن، فمع من كنت ستذهبين؟

في أي عمر تذكرين نفسك لأول مرة؟

إلى أي بلد ترغبين الذهاب أكثر من أي بلد آخر؟

هل لديك تلك الأمكنة في مدينة ما في الخارج والتي تعرفينها بالكتب، وتتصورينها بدقة كبيرة؟ هل لديك رغبة بأن تمري على هذه المدينة؟ بساحاتها وشوارعها؟

هل عانيت في وقت من الأوقات من الاحتقار، وكما بدا لك حينذاك، أنك لن تستطيعي تحمله؟

قولي، هل تعتبرين نفسك شخصاً طيب القلب؟ والآخرين؟ وكيف يعتبر أطفالك؟ هل كنت قريبة منهم في الطفولة أم عندما كبروا؟ أي وقت من أوقات السنة تحبين أكثر من الأوقات الأخرى؟

هل تشاهدين أحلاماً دائماً؟ قصي لي من فضلك أحد هذه الأحلام التي أحدثت لديك انطباعاً لا يمحى.

من تعتبرين من الناس القريبين منك أو الشخصيات التاريخية أو البطلات الأدبيات بالنسبة لك مثالاً للمرأة؟

هل تستطيعين العيش مع الأطفال في لينينغراد المحاصرة؟ وهل تذكرين ذلك اليوم، عندما عرفت أنك ستصبحين أماً؟ حدثيني عنه.

هل أنت شكوكة؟

رفعت رأسي ورأيت كيف تهتز رؤوس الأشجار بفعل الريح الضعيفة. لم تكن شجيرات البتولا غابة ولا حرجاً —كانت ببساطة أشجاراً متوزعة حول المنازل الصيفية، التي عشنا فيها في خريف عام ١٩٤٤.

نظرت إلى الأعلى وفكرت "لماذا يوجد هنا، في الأسفل هدوء هكذا؟" كانت لدي رغبة أن أتسلق شجرة بتولا وأهزها.

تصورت نفسي أنه ستكون مرئية من هناك على ما أعتقد بشكل جيد سكة الحديد والمحطة والغابة البعيدة خلف مبنى المضخة.

لم أكن بحالة طبيعية منذ الصباح الباكر. سرت خلال يوم كامل كبليد. وسألتني الأم:

– ما بك اليوم؟

– ما بي «هكذا»؟

شددت كتفي، لأنني في الواقع، لا أعرف "ما بي" اليوم. وها هي الأم تطردنا الآن بمعنى الكلمة من المنزل الصيفي كي نجمع الفطور الصالحة للطعام. خرجت الأخت لسبب ما وجرت غير بعيد وصرخت "انظر" إنني وجدت أيضاً!... ولو تم ذلك في زمن آخر لجرحني، ولكنني أومأت برأسي عندما أرتني من بعيد الفطر العادي الذي وجدته. تجولت دون هدف بين الأشجار، وعثرت بعد ذلك على بركة مليئة بماء ثلج ذائب. كانت تستلقي في القاع، وبين الأوراق الداكنة لسبب ما قطعة نقود. انحنيت كي آخذها، لكن أختي قررت إخافتي في ذلك الوقت بالضبط، وقفزت وهي تصيح من الشجرة. استأت

وأردت ضربها، ولكنني سمعت في تلك اللحظة صوتاً رجولياً معروفاً وغير متكرر:

مارينا — آ — آ!

وفي تلك الدقيقة سرنا مندفعين باتجاه المترل، أطلقت ساقيَّ للريح، وبعد ذلك تقطع شيء ما في صدري، وتعثرت وكدت أسقط، وتساقطت الدموع من عينيَّ.

رأيت أقرب فأقرب عينيه وشعره الأسود، ووجهه النحيف جداً وشكله بلباس الضباط، ويديه اللتين أحاطنا بهما.

ضمنا إليه، وأخذنا نبكي ثلاثتنا الآن، ملتصقين ببعضنا البعض بأكبر قدر ممكن، وشعرت كيف تخدرت أصابعي من تلك القوة التي تشبثت بها في قميصه العسكري.

لن تتركنا بعد الآن؟... أجل؟.. لن تتركنا بعد الآن؟.. — تمتمت أختي بذلك وهي تلهث، أما أنا فإنني تمسكت بقوة- بقوة فقط وراء كتفه الأبوي ولم أستطع التكلم.

التفت الوالد فجأة واستوى. كانت الأم تقف على بعد عدة خطوات عنا. كانت تنظر إلى الأب، وعلى وجهها تبدو تلك المعاناة وتلك السعادة، بحيث أنني أغمضت عيني دون إرادة مني. لقد حفظت إلى الأبد كلمات ليوناردو التي قرأها الأب لي. الأب الذي رأى المعارك الرهيبة في الميادين المفتوحة، المغطاة بالأثلام وبالثلج المدخَّن ومصائب الجثث، وهجمات المدرعات وطلقات المدافع. لا يمكن بالنسبة لنا نسيان المدن المحروقة، والقرى التي تحولت

إلى رماد، والجنود الذين فارقوا الحياة في ميادين الحرب الميتة كي لا تلامسنا يد الأعداء.

إننا نتذكر كذلك الانتصارات، التي تم إحرازها فيما بعد بالعرق والدم في الحقول المجتاحة، والأرض المنهوكة، والتي كلف كل متر مربع منها مئات الحيوات الإنسانية.

إننا لا نستطيع ونحن نتذكر الخسائر، ووطأة التغلب على الموت من أجل الانتصار، ونحن نفكر بالأرض التي تحمَّلت الكثير من المصائب، وشجن حريتنا، لا نستطيع إلا أن نلتفت كي ننظر إلى الوراء من أجل الشعور الفرح بمعرفة منابع عظمة محبتنا للحرية.

كان النبات العشبي البري الملوث بالطين والذي يتحمَّل الكثير ينتصب إلى نهاية الليل. كانت جذيراته في حقول كوليكوفو المترامية الأطراف ترتعش ليس من الريح فقط، وإنما من بطء المعافاة.

وكان الضباب الساكن فوق الدون يثير في الإنسان الانقباض والحزن.

الأنين — هذا الصراخ التعب الذي كان يُسمع خلال الليل وكان يذكر بالصدى، بدا وكأنه يخرج من صدور الناس.

– انطلق — وخز شاب فتي جداً بقميص ممزق وجه الحصان التتري من فصيلة روسية وانسل نحو الدخلاء دون أن يخاف.

– كفى ثرثرة، قنش! — أوقفه، انحنى العجوز دون أن يلتفت، كي يطرح جانباً جثة الأورديني التي كانت تجثم على صدر محارب شاب يرتدي ملابس فاخرة.

– ديمتري ايوانوفيتش! — سار مندفعاً فوق الأرض السمراء– الأمير!

– انظر! — أشار الرئيس.

ومن تحت صدر الجسم لاح حزام أبيض فضي. تخاطفوا وهم صامتون القتلى وإذ رفعوا الأمير قليلاً، وضعوه على حمالات مرتجلة من شواهد مغطاة بالمعاطف. اقترب بسرعة ثلاثة أشخاص أيضاً.

حملوا الأمير إلى الرابية.

اقترب الشاب من الشاطئ وقد تأخر عن الآخرين، ودون أن يسرع نزع قبعته ووضعها على كتفيه، واغترف الماء من الدون. ولكنه قذفه فوراً باشمئزاز من فمه. كان الماء كدراً من معركة البارحة.

على الرابية، وتحت أيقونة سوداء مطرزة بالفضة وقف ديمتري أمام راية جيش الأمير مدعوماً من المحاربين...

... وكان يسير على الحقل فارس من التتر. أجفل حصانه فجأة في هدوء ما قبل الفجر من صوت البوق المفاجئ، واندفع إلى الجانب، انطلق على طول النهر، للقاء الشمس التي كانت تشرق.

التتري ميت منذ زمن طويل. لقد بدأ الميت ينهار منذ بداية المعركة، وأصبح واضحاً أن سهماً كان يبرز من ظهره.

هوى على الأرض، أما الحصان، الذي تحرر من حمله الذي لا معنى له، فقد تحرك مندفعاً، وركض مسرعاً أبعد فأبعد في السهب.

لم يبوّق فوق ميدان كوليكوفو بوق واحد، بل عشرات الأبواق، داعية الجميع، ومن يشعر بنفس الحياة، للنهوض والذهاب تحت راية الأمير ديمتري.

حان الوقت للعودة إلى المترل.

تغيرت الحرب — و تكفي الآن شظية صغيرة، أو شعلة النابالم السائلة التي تلتصق بالجسم، أو التيار المشع كي يقتل الإنسان. كانت الحرب مستقيمة في تلك الأوقات، وبالأحرى كانت تذكر بعمل اللحام. ولكن ألم يصبح ثمن الحياة البشرية منذ ذلك الوقت أخفض؟ ألم يحارب من أجل حريتنا ومن أجل المستقبل هؤلاء الرجال والفتيان ببسالة وبحزن مميت، صانعين بذلك أولى الخطوات نحو الفجر؟

كيف تقفين من الطيران في الفضاء الكوني؟

هل يدرس حفيدك في المدرسة؟ هل لديك اعتراضات تجاهه؟ وما هي؟

هل يوجد أناس صنعوا لك خيراً. هل أنت شاكرة لهم، ومن أجل ماذا بالضبط؟

وهل يوجد أناس يفعلون الخير لأطفالك؟ من بالضبط؟

أية نوعية تقيمينها أكثر من أي شيء في الناس ولماذا؟ وأية نوعية تدينينها، ولكنك مستعدة للصفح؟

كيف تقفين من الأنانية؟

ماذا تقيمين في الشبيبة المعاصرة؟

هل يوجد في طبعك غرابة من الصعوبة تفسيرها؟ وما هي بالضبط؟

ما هو أكثر الأحداث فكاهية في حياتك؟

لماذا لم تسم ابنك باسم آخر؟ هل كانت لديك رغبة في أن تسميه باسم آخر؟

قولي لي من فضلك، هل كانت لديك أية تعقيدات في العمل؟

هل تحبين باخ؟

أحلم باستمرار نفس الحلم، إنه يتكرر تقريباً بشكل حرفي، ربما بتغيرات قليلة الأهمية جداً، ببساطة مترل فقط، حيث ولدت، إنني أراه بأشكال مختلفة: أراه في الشمس، وفي الطقس الغائم وفي الشتاء وفي الصيف... اعتدت على ذلك. والآن. عندما أحلم بالجدران المصنوعة من جذوع الشجر، والمسودة بفعل الزمن، والأطر البيضاء، والباب نصف المفتوح من السقيفة في ظلمة المدخل، أعرف في الحلم، أن هذا يجري في الحلم فقط، ويتعكر فرح العودة اللاإرادي إلى الوطن بانتظار الاستيقاظ. ولكن عندما أقترب من السقيفة تحت وقع حفيف ورق الشجر، فإن شعوراً بالكآبة الواقعية بالعودة ينتصر، والاستيقاظ دائماً محزن ومفاجئ...

أية نوعية تعتبرينها في الإنسان؟ أو أية نوعية تقيمينها أكثر من أي شيء آخر؟

ألم يبدُ لك أبداً أن الناس الموهوبين يثيرون لديك الضجر؟

هل أردت أن تكوني شاعرة على مستوى تسفيتايفا أو احماتوفا؟ أي منهما أقرب إليك؟

ماذا تفكرين حول الحرب في فيتنام؟

ألم يبدُ لك أنك لا تفهمين دائماً، أية مسائل تقلق الشبيبة هذا اليوم؟

ألم يبدُ لك أنك تخلفت، وأن المسائل التي توضع أمامك لا تقلقك؟

قصي، من فضلك، كل ما تتذكرينه عن زافراجي. وأي مكان هو؟

كان صباحاً باكراً وبارداً.

في هذا الخريف الأول بعد الحرب، و لم تكن الأم قد التحقت بعد في العمل، غالباً ما كان يأتي إلى هنا، إلى هذا السوق الصغير، والواقع تقريباً في مركز المدينة. لم يسمحوا في ذلك الوقت، ولسبب ما ببيع الزهور حتى في الأسواق. أجل وأية زهور كانت وقت ذاك! إنها ليست كما هي الآن، حيث يجلبونها من الجنوب بالقطارات والطائرات.

أمام مداخل السوق، في زقاق ضيق ومشيد ببيوت قديمة غير عالية، كانت تقف النساء وتبيع مختلف أنواع النباتات والزهور. من المستحيل القول أن التجارة كانت تسير بنشاط — لم يكن ذلك الزمن هو زمنها.

كانت أمي تقف كذلك بين تلك النساء اللواتي يأتين من خارج المدينة. كانت في يديها سلة مغطاة بالخيش. سحبت منها بشكل مرتب باقة مربوطة من الزهر (اوفيوكا) وانتظرت كما الأخريات المشتري.

إنني أتصور كيف كانت تنظر إلى الناس المارين في السوق، كان في عينيها هناك نوع من التحدي الذي كان يجب أن يعني أنها هنا صدفة، وأن لديها رغبة مستعجلة بأن تبيع بأسرع ما يمكن بضاعتها وترحل.

اقترب منها شخص معمر بذقن صغيرة ومعطف طويل وفاتح، أخذ الزهور وكأنه مذنب دسّ لها النقود وتابع طريقه مسرعاً. خفضت الأم رأسها لدقيقة، أخفت النقود في جيبها، وسحبت من السلة باقة ثانية..

دخل من باب السوق شرطي نحيل، وتوقف وتلفت إلى الجوانب بشكل سلطوي. هرولت النساء مع الزهور إلى وراء الزاوية. بقيت الأم وحدها تقف

في مكانها السابق، وهيئتها كلها كانت تقول أن كل هذا الهلع المثار نتيجة ظهور الشرطي لا يعنيها.

مدت يدها إلى جيبها من أجل سيجارة البابيروس، ولكنها لم تستطع أن تجد عود كبريت بأي شكل من الأشكال. اقترب الشرطي منها وألقى جانباً الخيش، وإذ رأى الزهور، قال بصوت مبحوح.

- هيا اذهبي... اذهبي من هنا...

- من فضلك...

ضحكت الأم بسخرية، شدت كتفيها وابتعدت جانباً. كان هناك في هذه الحركة، شيء ما مستقل جداً، وفي نفس الوقت يرثى له. كانت تدخن وهي تعتذر من المارة وتأخذ نفساً عميقاً.

سعلت. كان يجب الانتظار إلى أن يذهب الشرطي.

كان يخيم الظلام في العربة، وكان الهواء محبوساً، الأمر الذي أدَّى، ورغم أن النوافذ كانت مفتوحة إلى ألم في رأسي. أمام عيني دوائر بألوان قوس قزح. كنا نقف أنا وأمي في الممر، أما انتونينا الكساندروفنا وأختي فكانتا تجلسان عند النافذة، مضغوطتين من قبل شخص ضخم بوجه عرِق.

كان القطار يلتمع مع الهدير بالقرب من المحطات الصغيرة المغبرة، ومخازن البضائع والكوم التي يتصاعد منها الدخان والمسيجة بالأسلاك الشوكية. وبعد ذلك بدأت الغابات. ولكن حتى هذا لم يجلب التسهيلات، وقوَّت تيارات الهواء بين العربات لدي الشعور بالإقياء. كانوا يصيحون ويضحكون ويغنون في العربة، ومن خلال الضجة وهدير القطار، كان يُسمع وكأنه صادر من نهاية العربة البعيدة أحد ما يعزف على هارمونيكا عزفاً كليلاً متواصلاً ومعذباً.

أظلمت الدنيا في عيني وشعرت أنني أمتقع. ورأيت نفسي في هذه اللحظة وكأنني على الجانب، وذهلت فجأة من اخضرار وجهي ووجنتي المنهارين.

نظرت الأم إلي مستفهمة.

- أتتفيأ شيئاً ما... سأذهب إلى مدخل العربة... تمتمت وصرت أشق طريقي وسط الممر المطروق.

تحركت الأم ورائي.

كانت ركبتاي ترتجفان، ورجلاي رخوتان كالقطن، ولم أر شيئاً حولي، واندفعت مستجمعاً قواي الأخيرة إلى المدخل المنقذ، «أن لا أقع فقط، فكرت، أن لا أقع فقط».

وقفت بعد ذلك على الدرجة العليا من السلم متمسكاً بالدرابزون.

مسكتني الأم من الوراء بالقشاط.

سار القطار مندفعاً بمحاذاة منحدر أخضر، مزخرف بكتابة على آجر أبيض: «قضيتنا عادلة — سننتصر».

ألقيت وجهي للريح ساعياً أن أتنفس عميقاً، وأخذت أعود إلى نفسي قليلاً.

- ما به؟ — سمعت خلفي صوت نسائي حنون. أجابت الأم بشيء ما.

عدت إليها وأنا أبلع ريقي وحاولت الابتسام.

- لا شيء، قريباً سنخرج. قالت هي.

- حسناً خذ، اشرب — سمعت هذا الصوت.

انحنت المرأة المسنة التي تلبس رغم الحر معطفاً قصيراً من القطن، وحذاء مطاطياً، انحنت فوق صفيحة كبيرة وصبت الحليب في صحن. نظرتُ إلى الأم، فهزت رأسها واستدارت.

– شكراً، – قلت للمرأة في الحذاء المطاطي، ومحاولاً أن أسكب الحليب، أخذت من يدها الصحن العميق المصنوع من الصفيح. كانت تنظر إلي أثناء شربي بسرور.

استدارت الأم وذهبت عائدة إلى العربة.

– نحن الآن... سأذهب وراء جماعتنا...

عندما وصل القطار، وقفنا طويلاً على رصيف خشبي وأصغينا كيف يصمت في البعيد هدير القطار.

وبعد ذلك حل صمت يحدث الصمم، واقتحم رئتي أوكسجين نقي يفوح بعبق الراتنج.

كانت هناك برودة في الحقل، وعلى الطريق الطيني كانت تقوم برك صفراء عميقة. والشمس تضيء من خلال الغيوم الخفيفة والشفافة، والريح تصفر في العشب الجاف بهدوء.

تجولنا بشكل غير مستقيم، في أرض مستريحة محفورة بأوكار الخلدة، وجمعنا «أزهاراً» – عناقيد مشابهة للشوفان بلون داكن ومغطاة بأوبار حريرية ناعمة. كنت في كل مرة أحزم الباقات الفخمة وغير الكبيرة التي كنت أجمعها بلبلاب طويل، وأضعها في سلة كما علمتني أمي. وقد عرفت بالكاد لأجل ماذا تخصص هذه «الباقات»، وقلت لأمي التي مشت باتجاهي مع باقة الزهر، عن ذلك، ومن وقت لآخر كانت تنحني من أجل نسخة جميلة خاصة.

- أمي يمكن، كفى... نسير ونسير، نجمع ونجمع... إلهم!...

- ما أنت، هل تعبت؟ سألت الأم دون أن تنظر إلي.

- سئمت من كل هذا!

- آه، هل سئمت من ذلك؟ ولكن ألم أسأم أنا أيضاً...

- لا تسأمي —اجمعي بنفسك زهورك، أما أنا فلا!

- آه، سوف لن تجمع؟

تغيرت الأم وسالت الدموع في وجهها، وعلى عينيها ولطمتني بشدة على وجهي. التفت وأنا ملتهب.

لم تلاحظ أختي شيئاً.

عندئذ ذهبت إلى وسط الحقل...

كان خدي يلتهب. رفعت من الأرض عصا، وصرت لأجل أن أتلهى أنبش الأكيمة الهشة فوق جحر الخلد، كي أستكشف المجاري تحت الأرضية، المحفورة من قبل الخلد.

رأيت من البعيد، كيف كانت تسير أختي وانتونينا اليكساندروفنا وأمي إلى الخلف وإلى الأمام، وهن ينحين من أجل هذه الأزهار اللعينة.

هل ضربت أطفالك في وقت ما؟ بالطبع كلا، أنا لا أتكلم عن عقاب جسماني على الطريقة الكاشيرية، ولكن عندما لا يستطيع الناس أن يتمالكوا أنفسهم، ويصفعون أطفالهم.

قصي لي من فضلك، عن أفضل أيام طفولتك. هل تحلمين الآن ببعض الدقائق من ذلك الزمن مهما تكن؟

ألم تجدي أن لكل عمر جماله، وعدم تكراره، وأن الشيخوخة مثلاً ليست حزينة هكذا وغير شيقة وغير مفرحة، إن كانت شيخوخة إنسان قوي وسليم؟

ألا تعتبرين، أن الحب —هو هدف ومنطلق أعلى بالحياة، وكل ما تبقى- هو إما صعود نحو هذه القمة، أم نزول منها؟

هل قصصت في يوم ما لأحد أطفالك عن حبك؟ وحول ماذا تسمين الحب؟ ومع من أسهل الحديث عن هذه الأشياء بالنسبة لك؟ مع أولادك أم مع الناس الغرباء؟

هل تستطيعين الصفح؟ في الأشياء الكبيرة أم الصغيرة؟

هل من الصعوبة بالنسبة لكِ هجر الناس؟

إنها تنام على سرير مخلخل مع كنار مزركش يصل إلى الأرض. كان وجهها مغطى بالنمش، وشعرها الأشقر يتدلى على الجانب. إنها تتنفس غالباً وترتعش من وقت لآخر في الحلم. يداها هادئتان وخفيفتان. كان الظلام يخيم في البيت الريفي، لكنني لم أنم منذ زمن طويل، وعيناي تعودتا على الظلمة الدخانية المعتمة.

يجري بالقرب من القرية حيث نعيش نهر صغير ضيق متعرج، ينمو على جانبيه الحور الرومي، والضباب الذي يخيم عليه يلتقي مع حقول الحنطة البيضاء خلف المنخفض، الذي يجري فيه هذا النهير.

لا يوجد أي صوت خلف النوافذ. ويثير هذا السكون شعوراً فرحاً وهادئاً.

وجهها أصبح ضامراً من الهم، وأصفر، وتحت عينيها غضون تجعلها هرم ودون دفاع حتى الألم العزيز. ويستلقي الظلام على وجهها، ويبدو أنها تصغي

حتى في الحلم إلى السكون المعادي للبيت الغريب، وتحمل مصيرها الثقيل وغير الكريم – تحافظ علي من الأخطار، التي كما يبدو لها تحشي في كل خطوة.

خيل إلي أنني سمعت أصواتاً:

«... في بداية الأمر يجب الإعجاب بالحذاء النسائي والمغسلة – إليكم كيف يجب الإمساك بها. وأنت لم تعرف؟ يجب إدهاشها حتى الإعجاب، حتى الاختراق، حتى الخجل، بحيث أنه يمكن أن يعشقها نبيل كما هي في شعرها الأسود. سيكون هناك أجلاف دائماً وسيوجدون باستمرار، أجل ونبلاء أيضاً في العالم، وسيكون عندئذ دائماً مثل تلك الخادمة التي تقوم بتنظيف الأرض، وسيوجد دائماً سيدها، أليس هذا ما يجب أن يكون لأجل السعادة في الحياة...»

كلمات متزنة ونادرة تمتد تارة بصورة غير طبيعية في الزمن، وتارة تصبح جلية وكريهة...

«... قف، اسمع، يا اليوشا، أنا أمك المرحومة إنك أدهشت الجميع، بيد أن ذلك ظهر في هيئة أخرى فقط. كان يحدث أحياناً أنني لم أكن أدللها، وفجأة ما إن حلت الدقيقة الحاسمة، حتى تبعثر كل شيء أمامها، اعمل كل ما أستطيع كي أرافقها وأتذكر ذلك دائماً كما أتذكره الآن...»

من الصعوبة أن أنزع من ذاكرتي ما عانيت منه، وما ألّفته، وما قرأته في الكتب، ولذلك عندما أسمع فجأة صوت العجوز كارامازوف المبحوح والكريه، فإنني لا أستطيع أن أميز أنني أتذكر بالضبط –ما هو مبتكر أو مقروء أو مسموع به.

«... أعرف أن المرض قد بدأ عندها، وأنها غداً ستبدأ بالمناداة كالمجنونة، وأن هذا الضحك الراهن والصغير لا يعني أبداً الفرح. يا للعجب، فهل الكذب والنفاق يسببان الفرح. هذا ما يعني المقدرة على إيجاد المزايا في كل شيء!...»

ولكن لك الله يا اليوشا، إنني لم أؤذي أبداً امرأتي المصابة بالهستيريا. مرة واحدة فقط في العالم الأول: صلت، وكانت ترقب آنذاك بشكل خاص أعياد أم المسيح. وقتها أبعدتني عنها في الغرفة. هذه هي الصورة، وها أنا أصورها: انظر إنك تعتبرها عجيبة، أم أنا فأبصق عليها لديك، وسوف لن يكون وراء ذلك أي شيء بالنسبة لي!... كيف رأيت يا إلهي، أفكر: ستضربني الآن، ولكنها قفزت فقط وصفقت بيديها، وبعد ذلك غطت وجهها بيديها فجأة، كل شيء تزعزع وسقط على الأرض... وهكذا استسلمت...

«يا اليوشا، يا اليوشا! ما بك، ما بك!»

فجأة بدأت بالبكاء في الحلم، كأنها تسمع ما أسمع أنا. في البداية بلا صوت، ولكن فيما بعد تكلمت لاهثة وهي تهتز بكل جسمها، وتقفز على السرير، وتبكي بمرارة وبتشبث ممسكة تارة بعنقها وتارة أخرى بحنجرتها كي تسهل عليها التنفس، وتستيقظ بعد ذلك.

- أي حلم رأيت! آه، رأيت مثل ذلك الحلم السيئ!

أهدِّئها، وبصعوبة أنام وأرى حلماً أيضاً. كأنني أجلس أمام مرآة كبيرة في إطار يتلاشى في الظلام، وينتقل بشكل غير ملحوظ إلى الجدران المصنوعة من جذوع الشجر...

لم أر وجهي. أما قلبي فهو مليء بالكآبة والخوف أمام الضرر الذي تم والذي لا يمكن إصلاحه.

لماذا فعلتُ هذا، ولأي شيء، ولماذا هكذا دون معنى وبلا موهبة هدمت ما لأجله أعيش، دون أن أعاني من الألم وتوبيخ الضمير؟ من طلب مني ذلك، ومن تغاضى عن ذلك؟ ولأجل ماذا هذا؟ ولماذا هذا الضرر؟

الفضاء المعكوس في المرآة مُنار بضوء الشمعة. أرفع رأسي وأرى في الزجاج الدافئ والذهبي وجهٌ غريب، وجهٌ شاب وجميل في وقاحته وغبائه الواضح، بعينين فاتحتين وثاقبتين وحدقتين واسعتين. وإذا التفتُّ، فإنني أرى في الجانب ذلك الآخر الذي بادلته بوجهي. إنه يقف، ويستند بكتفه على الحائط، ولا ينظر باتجاهي. إنه يتفحص يديه، وبعد ذلك يرطِّب بلعابه أصابعه ويحاول أن يزيل شيء. ها قد وسخ راحة يده. ولديه وجهي.

لماذا فعلت هذا؟! ولكن الآن لن يعود أي شيء! قد أصبح متأخراً، متأخراً جداً! ليكن وجهي، أي الآن وجهه، ليس هكذا جميلاً، وليس شاباً، وعديم التناسق، ولكن مع ذلك فهذا وجهي. وليس ذلك الوجه الغبي، حتى على العكس، إنه ذكي على الأصح، إنه وجه عجوز ومباع ومكروه من قبلي. لماذا فعلت هذا؟ لماذا؟

عندما استيقظت، كان قد حل النهار. لم يكن هناك في الغرفة القروية أحد، صاحبة المترل فقط، وخلف الجدار كانت تعج الملاقط.

أتسمع يا عزيزي، أنا ذاهبة إلى الكنيسة، إنني مستعجلة، تستطيع أن تأكل هنا من تحت المنشفة. ذباب لماذا في هذه الأيام... زلابية، كل أنت، أما جماعتك فإنهم جميعاً في العمل. جروا إلى النهر.

بأي مناسبة الزلابية؟ سألت.

ألا تدري أن اليوم هو السادس حسب التقويم القديم. لقد حدث تغيُّر.

ألم تسمع بالأعياد؟

من تحبين أكثر؟ أحفادك أم أبناءك، عندما كانوا أطفالاً؟

قبل أن يولد لديك الطفل الأول، هل أحببت الأطفال؟ وهل أردت امتلاكهم؟

هل وجد في حياتك ذلك الإنسان الذي رغبت أن تكوني قريبة منه، ولكن لهذا السبب أو ذاك لم يحصل ذلك؟ من هو —هل هو رجل أم امرأة؟

هل تريدين أن تعيشي الحياة من جديد؟ وهل عشتها؟

ألا تأسفين على الأفعال التي حددت حياتك اللاحقة؟

قولي من فضلك، هل تتذكرين غالباً أمك؟ أو أباك؟ وهل تتذكرين طفولتك بشكل عام؟

لو أمكن تحقيق ثلاث رغبات لك كما في الأسطورة، فأي الرغبات تطلبينها؟ هل هي لأجلك؟

ماذا تتذكرين عن الحرب في إسبانيا؟

تكلموا بوقت واحد، بحيث كان من الصعوبة تمييز بعض الكلمات.

كان هذا في الصيف، في قهوة مفتوحة على تقاطع زقاقي ستوليشنوف وبيتروفكا — أربع رجال وامرأة - إسبان.

وسط دوامة الماء والحشد الصيفي، وحرارة القادمين الذين يهاجمون المخازن، وفي ركن صغير من الساحة تحت سقيفة، جلس أناس في الأربعين من عمرهم في بدلات عاتمة. وبينهم كانت تقوم زجاجة من الخمر الأحمر قد بُدئ بشربها وزيتون. كان يتحدث رجلان عن رحلتهما إلى إسبانيا منذ فترة قصيرة، وقد صدم أحدهما الآخر.

- تناقشت معه... فأنا أتذكر بدقة —هنا كانت مدرسة كاثوليكية، ومقابلها منزل الخالة أنجيلا. أنا أتذكر...

- إنك تكلمت، إن الكاراج كان على اليمين... ولكن هناك لا يوجد أي كاراج.

- إننا ندخل... أربعة عشرة درجة إلى اليسار. ولسبب ما عددهم ١٦.

- يفتح أناس غير معروفين تماماً.

- خوليو، هذا ابن شقيقها! إنها عمياء، عمياء تماماً، لا تستطيع العيش لوحدها. يا إلهي، لقد عرفتني! أتفهمون، لقد عرفتني. بالصوت. ولكن كيف يمكن المعرفة بالصوت، لقد رحلت —وكان عمري ١٩ عاماً.

- أتعرفون الرايولي، يظهر أنه بمثابة الشوش برك عندنا...

- لم يعد العم الفونسو موجوداً... مات ايغناسيو في العام الماضي... أوه لو أنتم نظرتم إلى أحفادي! أجل أجل أحفاده كان لدي ابن خال، إنه يعمل الآن في هامبورغ، إنه أكبر بكثير مني، ولديه أحفاد وذلك يعني أنهم أحفادي... بيرنارد ديكو... وتوماس..

- ضوء عادي، أتعرف في فتحة الطرقات يبدو آخر تماماً. أي ليموني... لم يبق لدي في بيلباو أحد، أنت تعرف ذلك... بقي الجد لوحده فقط- يا إلهي، لديه كشك لبيع التبغ. إنه ينظر إلي، كما ينظر إلى معدم. لقد دعاني بنفسه ويخاف أن يكتب لي وصية. لو نظرت إليه. إنه وغد ببساطة. بالرغم من أن عمره الآن ٩٠ عاماً أما العجائز

فإنهن يجلسن أمام الأبواب على كراسٍ دون مساند. لقد سمعت الكلمة اللطيفة الوحيدة في بيتنا من العجوز أرريلاغا. ستشبه أمك، إنك تسمن كابن الأربعين، كان لدي من العمر ٤٦ عاماً.

– كلا، يعيشون الآن أفضل. بشكل عام غير سيئ... السياح، الألمان الغربيون والأمريكيون. هناك أتعرف، رأينا غوميز، لاعب الكرة، عنده سيارة. ولكنني لا أستطيع أن أعيش هكذا... إنه أوقع الكرة في التدريب، كما عندنا على شاكلته الأولاد في فريق «دينامو».

– ولكن الخمر... هل هذا!.. هذا معمل ميتيشينسكي للخضار والفواكه. في سان سيبستيان، في كل قهوة مكتوب:

«عن السياسة لا تتحدثوا، وعندما ترحلون ادفعوا الحساب...»

أجل، بالطبع، يتكلمون... رأيت، رأيت وادي الشهداء. الصليب بطول متر ونصف...

يبدو ضخماً. وفي الكاتدرائية، وتحت الموزاييك ٨٠ ألف...

– ٨٥ ألف.

– ٨٥ ألف جمهوري.

– هناك ليس فقط الجمهوريون، ولكن المتمردون أيضاً، الغرنكويون. إنه تمثال الحرب الأهلية بشكل عام.

– ولكن المعتقلين السياسيين هم من بناه. كعبيد. بنوه خلال ١٩ عاماً...

– وماتيو كما في السابق يكتب هناك الأشعار لأجل المنشورات. يتكلمون، إنه في العمل السري.

- شعور غريب في الصباح الأول. لم أفتح عيني بعد، وفي أذني يندس خطاب إسباني. فقط إسباني... كل النوافذ مفتوحة، اليوم سوق... والأصوات، الأصوات... هكذا ببطء، يسيرون إلى البازار غير مسرعين.

دفنت رأسي في المخدة، كي لا اسمع وكأن شيئاً لم يكن. عمري ١٩ عاماً، وأمي ذهبت إلى السوق من أجل الخضار.

امرأة بشعر منفوش نهضت بحدة، وانطوت على نفسها، وتجمدت لدقيقة واندفعت منصرفة من القهوة. ركض أحد الرجال وراءها.

- يا لوتشيا، يا لوتشيا! -صرخ الرجل، دون أن يعير اهتماماً للناس الذين التفتوا إليه.

- ما بك؟.. حسناً، توقفي، توقفي. إنك تفكرين، أنه ليس لدي رغبة في البكاء؟ يا لوتشيا!

دفنت المرأة وجهها في كتفه.

كان الرجل قصير القامة، أصلع، وهي امرأة فارعة وجميلة.

- لم نكن لنستطيع العيش هناك - تابع الرجل- هناك شيء آخر. إنها بشكل عام ذكريات... حسناً تعالي لنتكلم، قولي شيئاً ما، فقط لا تبكي... لدينا أطفال لا يربطهم أي شيء بإسبانيا. لكننا هنا أناس أحرار، لقد أقسمنا سوية وقت ذلك ونحن أطفال... أتذكرين؟ أننا سنعود.

- متى، متى؟ -استطاعت لوتشيا أن تتلفظ بذلك فقط.

- حسناً، اذهبي إذاً إلى مدريد – صرخ فجأة– اذهبي! إلى أين تذهبين؟

تحركت لوتشيا بحزم نحو الصف الذي ينتظر افتتاح مخزن ألفرِد.

- إلى أين تسرعين كالمجنونة؟

- لقد عرفت الصف. ليس لدى ألفونسو قبعة شتوية. تكلموا، سيفتح بعد الغداء...

وقفا بعض الزمن وسط الجمهور دون أن يتكلما، وبعد ذلك قالت لوتشيا بصوت منخفض، وهي تشيح بوجهها: - لا أستطيع... ولا أستطيع أن أرحل، و...

- ولكننا أقسمنا... أقسمنا أن نعود إلى مدريد... إلى مدريدنا... إلى...

تلفظ هذه الكلمات، كسؤال وكجوهر معنى كل حياتهما. استدارت نحو مرسى أوديسا دون استعجال سفينة «أرجونيكيدزة» وقد التصق الطلائع الإسبان بالدرابزون، وشبابيك البناء الفوقي للسفينة. دوى نشيد الفريق الأممي، على السطح، وعلى المرفأ. ذلك النشيد الذي لا يهمد أبداً.

ومن جديد أمشي بالقرب من المغسلة المهدمة، بالقرب من الأشجار النادرة بزافراجي. كل شيء هكذا، كما كان دائماً، عندما حلمت بعودتي. لكنني الآن لست بمفردي، معي أمي. نسير ببطء على طول الأسيجة القديمة، وبالممرات المعروفة بالنسبة لي من أيام الطفولة.

ها هو الحرج الذي يقوم فيه المترل.

لكن المترل غير موجود. تتراءى أعالي الأشجار من الماء، الذي غمر كل ما حوله: الكنيسة، والبناء الجانبي الواقع خلف مترل طفولتي، والبيت نفسه.

أخلع ملابسي وأقفز في الماء. ضوء معكر ومعتم يهبط إلى القاع العشبي غير المستوي. تتعود عيناي على هذه العتمة الضعيفة، وتدريجياً أبدأ التمييز في الماء العكر تقريباً ملامح مواد معروفة: جذوع أشجار البتولا التي تلوح بلون أبيض بجانب الأسيجة المنهارة لركن الكنيسة التي كانت قبتها تبدو دون صليب. وها هو المنزل...

السقوط الأسود للنوافذ، والباب المخلوع المعلق على أحد الحبال، والماسورة المفتتة، وقطع الطوب المستلقية على السطح الرث. أرفع رأسي وأفتش عن سطح الماء المتلألئ، ومن خلاله —أرى الهالة الباهتة غير اللامعة للشمس. كان يسبح فوق قاع زورق.

أمسك بيدي، واندفع مرتكزاً على السقف الصدئ الذي ارتد تحت قدمي وأعوم على السطح. تجلس أمي في الزورق وتنظر إلي. ولدينا نحن الاثنان نفس الشعور كما لو أننا نكذب في أكثر آمالنا إخلاصاً وإشراقاً.

إن العودة غير المستعجلة وببطء وخفقات الفرح، وكأنها دم لدى المصاب بجرح مميت، ويخرج من قلبنا، وقد أخلي المكان للخراب المر والكئيب.

يصل قبلنا طائراً صفير الباخرة الأجش والمنخفض... لم يكن هناك ما يستوجب المجيء إلى هنا. لا تعودوا أبداً إلى الخرائب —حتى ولو المدينة أو المنزل حيث ولدت، أو الإنسان الذي افترقت عنه. عندما بنوا محطة تويبيتشيف الكهرمائية، ارتفع الفولغا، وذهبت زافراجي إلى الأبد تحت الماء.

هل تذكرين أكثر أيامك سعادة؟ قصّي لي عنها من فضلك، وأكثر أيامك حزناً وغرابة؟

ما هو برأيك هدف الفن؟

ما هي الشجرة التي تحبينها أكثر من أية شجرة أخرى؟

لماذا؟

ماذا أردت أن يرى ابنك؟ هل رغبت له مصيراً آخر؟

هل تحبين بوكس (نوع من الكلاب)؟ على ما أعتقد أنت لا تحبين العراك، ولكن هل حدث في حياتك مثل ذلك الحدث عندما اعتبرت أن الضرب كان يحمل العدل و لم يكن هناك مخرج آخر؟

هل اعتبرت نفسك جميلة في مرحلة الشباب؟ هل غازلك الكثير؟

هل غرت في وقت من الأوقات من جمال امرأة أخرى؟ كيف تقفين من النساء الذكيات والبارزات، ولكن غير الجميلات؟

هل يبدو لك أن أخلاق شباب اليوم متحررة كثيراً؟

ما هي أكبر تعاسة بالنسبة لك؟

هل تعتبرين أن المرأة «المتحررة» — شيء جيد؟ أم سيئ؟

هل تعتبرين أن آراء تولستوي، مدمرة بالنسبة لوجود المرآة وتمايزها عن الرجل؟

هل تعتبرين نفسك شخصاً اجتماعياً؟ ليس من الضرورة بمعنى العمل الاجتماعي. من تقصدين بكلمة الشعب؟

ما هو موقفك منه، وماذا يعني بالنسبة لك أن تخدمي الشعب وأن تكوني جزءاً منه؟ ما هو أكثر إيجاعاً بالنسبة لك وأكثر صعوبة ألم الشعب، أم ألم أقربائك؟

ألم تكوني أبداً في ميدان سباق الخيل؟

كان ميدان سباق الخيل يعج...

لم يبق على النهاية أكثر من ثلاثين متراً، ولكن الخيل سارت كما في السابق بتركيز. كان الجوكيون في ثيابهم الطويلة الملونة بألوان مختلفة والتي ترتفع قليلاً عن الركاب، «يحثون» الخيول، وبدا أنه بعد ثانية سيتعرض أحد هؤلاء لخطر أن ينقلب إلى الأمام.

صرخت امرأة غير شابة بجانبي! «الفريق»

التفتُّ — صرخت أختي التي كان كل ذلك غير ممتع قبل دقيقة بالنسبة لها، صرخت من الإثارة في مكانها، وبدا ابنها «الذي ولد نحيلاً بشعر أسود» خائفاً.

هاهو، هاهو يجب أن يقرع الجرس، التفت كي أعرف من سيفوز بالقفزة على أية حال، وفجأة رأيت أمي.

كانت تفتش عن أحد ما بين الجمهور. وقد دفعت إلى ممر مزدحم، ولكنها لم تلاحظ ذلك وارتدت فقط وهي خائفة، عندما صدمها أحد الشبان برجله كاد أن يسقطها وهو يندفع فجأة باتجاه شباك التذاكر. تحركت إلى لقائها بشكل لا إرادي، ولكنها كانت قد رأت أختي وتوجهت بحزم نحوها وهي تبعد عنها الناس. وهكذا لم أرى من فاز بالقفزة. انتشرت الأحصنة المكبوحة في الجوكية الآن أبعد، نحو المنعطف. لم يكن أحد يصرخ حولي، بالرغم من أن أحد ما مكان يشتم، أما في الهواء فقد طارت رزمة من بطاقات الرهان. صعدت الأم حتى الصف، حيث كانت الأخت وميشكا يجلسان، ولكنها لم تستطع أن تمر أبعد من ذلك.

كان أربعة رجال أمن مسنين وبدينين في سترات طويلة في المعبر يناقشون بحرارة الشوط الأخير. صرخت الأم وهي مثارة كلياً بشيء ما للأخت، بيد أن صوتها لم يكن مسموعاً. نظرت الأخت بحيرة وبشعور بالذنب إليها. أخيراً شقت الأم طريقها بصعوبة إلى جماعتها. وضعت يدها على كتف حفيدها، وخمنت، أن الأم مستاءة من حضوره إلى هنا.

تحرك الرجل الذي كان يجلس بالقرب، متنازلاً لها عن مكانه، ولكنها لم تكن تريد الجلوس.

كان هناك وقت حتى الوثبات الأخيرة ولذلك ذهب الكثيرون إلى الأسفل، خيم الهدوء على المنصة، ومن مكاني ميزت بعض الكلمات من حديث أمي مع أختي.

– لا أعرف، لا أعرف... ماذا يعمل هنا؟... لم يبق إلا الولد...

– إنه في جميع الأحوال لا يفهم شيئاً...ط

ليتنفس الهواء...

– ... لا أعرف... إنك أردت غسله اليوم... ما هذا أمأوى لصوص...

هنا أومأت الأخت برأسها باتجاه المرأة التي كانت تجلس غير بعيدة في لباس زاهٍ مع ابنتين، وفهمت ماذا قالت:

– إنه ليس وحيداً، هاهم أطفال آخرون... — أو شيء ما من هذا القبيل.

بعد ذلك نهضت الأخت وبدأت بعجلة تشق طريها نحو المخرج. صرخت لها الأم على الأثر:

– حسناً، بشكل عام، ليس لفترة طويلة فقط... ولكن أين...

– أجل هو هنا في مكان ما، سيأتي قريباً... إنه هنا!

فهمت. أنهما كانت تتكلمان عني. جلست الأم بجانب ميشكا، وسعت إلى تهدئته، وسحبت سيجارة بابيروس وأخذت تدخن.

نهض ميشكا، وفجأة أخذ يتمطى... أصبح ضجراً.

قالت الأم له شيئاً ما دون استعجال، ورأيت، أنها خجلت وحتى ابتسمت، مندهشة بانفعال لما قالته لا بنتها منذ قليل، ولوجوده هنا.

جلبوا البوظة إلى البنتين، وقدم أبوهما، ذلك الرجل الذي كان ثملاً قليلاً وبقبعة مجعدة، قدم لميشكا شوكولا وقال:

– خذ... لك!...

– اقتربت منها في هذه اللحظة امرأة مسنة وبيدها البرنامج واقترحت:

– ألا تريدين أن تلعبي؟ «لعبة الأبريكا» مع الأربعة هناك؟...

– أية «لعبة»... ماذا بك؟... — ارتبكت الأم.

ابتعدت المرأة دون أن تحزن.

ميشكا أكل الشوكولا، وقد لوث شفتيه وذقنه. نظرت الأم أمامها وأخذت نفساً من السيجارة، وعندها فقط على ما أعتقد رأت مضامير السباق إلى الأسفل، تحت المنصات، وميدان المنافسة، وإصطبلات الخيل بنفس اتجاه ميدان سباق الخيل ومنظر شامل وضخم للمدينة التي كانت تنبسط في البعيد خلف الميدان. وهمت من تعابير وجهها، أن المكان يعجبها.

في هذه اللحظة مرت أمام منصتنا نفسها ومع وقع حوافرها عدة خيول، ارتعدت الأم، ولكنها التفتت إلى ميشكا وهي تهدئه وبدأت تقول بشيء ما له، وبالكاد ابتسم. لكن ميدان السباق ضج من جديد بآلاف الأصوات، و لم أسمع صوتها.

إن الأم لن تصرح أبداً بالكلمات التي قالتها الآن لحفيدها.

في هذا الوقت انطلقت مجموعة متصدرة من الخيول إلى النهاية مباشرة، من اليسار وخلف المنعطف. وقد صرخ الجميع من حولي تقريباً – كان شوطاً سبقياً مركزياً في هذا اليوم.

ألقى الناس الجالسين على المنصات بأنفسهم على الحاجز. سعى الفرسان المجربون وهم يعملون بضراوة للحصول على الرهان أن يضايقوا منافسيهم بالضجيج. جرى نضال ضارٍ من أجل كسب السباق. وانتقلت هذه الضراوة إلى المنصات. وعج ميدان سباق الخيل وحث الفرسان بالتالي خيولهم بشكل أكبر. رأيت كيف نهضت أمي وأخذت ميشكا من يده بقوة. من المدهش أن التنفس المبحوح الثقيل المنبسط في الهواء للخيول وصياح الجوكية والقصير والقاسي كضربات السوط كانا مسموعين بين هدير ميدان سباق الخيل.

لم تعد الأم تنظر إلى المضمار، وكان وجهها أصفراً ومتوتراً أشاحت به عن الميدان وأخذت نتتش عن أحد ما بعينيها.

وفجأة تصادم حصانان، بقفزة كاملة باختصار ببعضهما البعض. وبالكاد استطاع أحد الجوكية أن يبقى على السرج و لم يطر عنه، أما الآخر فقد حلق للحظة في الهواء وسقط. تنحت الأحصنة الأخرى جانباً وهي مندفعة باتجاه المنصات نفسها، جميع من في ميدان السباق فغر فاه...

شعرت بنظرة ما خلفي، التفت ورأيت عيني أمي، كانت تفتش عني في الحشد. فهمت أنها تذكرت هنا، في ميدان السباق، ولماذا لا تستطيع أن تصرف عني النظرة الخائفة.

تذكرت ذلك اليوم الخريفي، عندما ألقى الحصان بي عن السرج نتيجة خوفه من شيء ما واشتبكت إحدى ساقاي بالركاب. جُررت على الأرض القاسية المتجمدة في الغابة النادرة الوجود، والحصان يحملني ويحملني، وفهمت أنه خلال ثانية سيحطم رأسي بحافره الذي يبرق عند عيني.

لا أدري بأية أعجوبة تحررت ساقي، ثم علمت أنني أستلقي على الأرض ولا أستطيع التنفس. عرفت الأم بذلك لقد قصصت عليها ما حدث.

ماذا تسمين الواجب المدنيّ؟

قصي من فضلك، عن أهم حدث خارق في حياتك؟

كيف تفكرين، هل كانت تجربة حياتك مفيدة بالنسبة لأطفالك؟ أم أنك تعتبرينها ذاتية.

هل تستطيعين الصفح كثيراً عن الإنسان الموهوب؟

أية ميزة للسمة الإنسانية تحددينها كأكثر السمات بشاعة؟

ألا تستطيعين أن تقولي، ماذا فعلت عندما بدأت الحرب؟ بماذا شعرت؟ ماذا كانت الفكرة الأولى لديك؟

ألم ترغبي أبداً في أن تتبني طفلاً غريباً؟ ليس من الضروري، أن لا يكون لديه أهل، ولكن أردت ببساطة أن يكون لديك بالضبط مثل ذلك الابن أو الابنة؟

قولي، هل يشبه هذا الصبي وهذه البنت طفليك عندما كان لهما نفس العمر؟

هل يوجد شيء ما عام؟

غرفة المؤلف. في الغرفة ناتاليا، المؤلف وايفنان.

ناتاليا: تستطيع الحضور إلينا غالباً إذا أردت. أنت تعرف كم يشتاق إليك.

المؤلف: هذا ما أريد قوله يا ناتاليا. اسمحي لايفنان أن يعيش معي.

ناتاليا: هل تقول هذا جاداً؟

المؤلف: حسناً أنت بنفسك تكلمت في وقت من الأوقات معي وقلت أنه يريد ذلك.

ناتاليا: ببساطة لا يسمح لك التكلم عن هذا ببساطة...

المؤلف: ماذا بك، تتصورين أنني ابتكرت كل ذلك من أجل سروري الخاص وتسليت، تعالي نسأله ودون انفعالات. كما يقرر، كما و.. بالمناسبة سيكون ذلك أسهل لك.

ناتاليا: بماذا سيكون أسهل بالنسبة لي؟

المؤلف: ايفنان!

ناتاليا: هل جمعت كتب الدراسة؟ اذهب وودع أباك.

المؤلف: أنا وأمك نريد أن نسألك...

ايفنان: ماذا؟

المؤلف: بما من الأفضل أن تعيش معي؟

ايفنان: كيف؟

المؤلف: حسناً أن تبقى عندي هنا، سنعيش معاً... ستنتقل إلى مدرسة أخرى إنك تحدثت وقت ما للماما عن هذا... أليس كذلك؟

ايفنان: ماذا تقول؟ متى؟ كلا، لا يجب!

توقف: ناتاليا تتفحص صور ماريا نيكولايفنا.

ناتاليا: كلا، ولكن نحن بالواقع متشابهتين جداً.

المؤلف: لا يوجد شيء مشترك!

ايفنان يخرج منَ الغرفة.

ناتاليا: ولكن ماذا تريد من الأم؟ أية علاقات ترغب؟ تلك التي كانت في الطفولة غير ممكن. أنت لست لك، وهي ليست تلك. ما تقوله لي عن مشاعر الذنب تجاهها، وأنها أتلفت حياتها عليك... ماذا. سوف لن تستطيع التخلص من هذا. لا تحتاجك بأي شيء. إنها بحاجة أن تصبح طفلاً من جديد، وأن تستطيع أن تحملك بيديها وأن تدافع عنك... يا إلهي لماذا أحشر نفسي في مسائل لا تخصني؟ كما هو دائم (تبكي).

المؤلف: لماذا أنت تبكين؟ هل تستطيعين أن تفسري لي؟

ناتاليا: هل أتزوجه أم لا؟

المؤلف: من؟ هل أعرفه؟

ناتاليا: «تاني — ي!...»

المؤلف: هل هو أوكرانيني؟

ناتاليا: أية أهمية لذلك؟

المؤلف: ومع ذلك، ماذا يعمل؟

ناتاليا: حسناً إنه كاتب.

المؤلف: وكنيته أليست بالصدفة هي دوستويفسكي؟

ناتاليا: دوستويفسكي.

المؤلف: إلى الآن لم يكتب أي شيء. وليس معروفاً من أحد. وعمره على ما أعتقد أربعون عاماً. هل ذلك صحيح؟ ذلك يعني أنه غير موهوب.

ناتاليا: أتعرف، إنك تغيرت كثيراً.

المؤلف: وهكذا فإنه دون أية موهبة، ولا يكتب شيئاً.

ناتاليا: لماذا؟ إنه يكتب، لكنه لا يطبع.

المؤلف: أوه، أحب بعضكما الآخر. تلميذنا العزيز الفاشل يحرق شيئاً ما. إنهم سيغرمونني الآن.

ناتاليا: إنك تهزأ بصورة مطلقة ودون سبب من هذا الفاشل.

المؤلف: إنه لم ينه المدرسة، وسيصدح في الجيش! وستواظبين على العتبات كي تحرريه من الخدمة! عندها سيكون ذلك محرجاً بالنسبة لي. إن كل هذا هو ثمرة تربيتك بالمناسبة! إنه ليس مستعداً للجيش. وبالمناسبة أيضاً لن يحدث له في الجيش أي شيء مريع.

ناتاليا: لماذا لا تتصل بأمك؟ لقد مرضت لثلاثة أيام بعد وفاة الخالة ليزا.

المؤلف: لم أعرف.

ناتاليا: لأنك لا تتصل!

المؤلف: إنها... كان يجب أن تأتي إلى هنا الساعة الخامسة.

ناتاليا: من الصعب عليك القيام دائماً بالخطوة الأولى بنفسك؟

المؤلف: إننا نتحدث الآن عن ايفنان كما أعتقد. لا أعرف، ربما أكون مذنبا أيضا أم أننا أصبحنا برجوازيين نحن الاثنين أليس كذلك؟ ولكن من ماذا؟ برجوازيته لها طابعها الآسيوي الكثيف. تشبه من يسعى للثروة. هو ذا لي بدلة واحدة يمكن الخروج بها. ملكية خاصة لا يوجد، ويزداد الرخاء. من المستحيل فهم أي شيء.

ناتاليا: هل تتبرم كل الوقت؟

المؤلف: لدى بعض معارفي ابن عمره خمسة عشر عاماً. أتى إلى أهلة وتكلم «سأرحل عنكم. هذا كل شيء. سئمت من النظر إليكما كيف تدوران. وهذا أفضل لكم ولنا» إنه صبي جيد، ليس مثل بليدنا. إن ولدنا للأسف لن يقول شيئاً من هذا القبيل.

ناتاليا: أتصور معارفك هؤلاء.

المؤلف: وماذا؟ ليسوا أسوأ منا. إنه يعمل في جريدة. ويعتبر نفسه أيضاً كاتباً. إلا أنه لا يستطيع أن يفهم، أن الكتاب ليس تأليف وليس راتباً ولكن فعل. إن الشاعر مدعو كي يثير هزة روحية وليس أن يثقف عبده الأوثان.

ناتاليا: اسمع، هل تتذكر لمن تكون هذه الشجيرة التي كانت تلتمع؟ هل هي ملاك بهيئة شجيرة.

المؤلف: لا أعرف، لا أتذكر، وفي جميع الأحوال، إنها ليست لايفنان.

ناتاليا: ربما نرسله إلى مدرسة سوفوروف؟

المؤلف: موسى. حسناً... الملاك في هيئة شجيرة تلتمع هو عبارة عن الرسول موسى. لقد قاد شعبه هناك مرةً أخرى عبر البحر.

ناتاليا: لماذا لم يحدث أي شيء من هذا؟

رأيت كل شيء هكذا بجلاء، وأنا أقف وراء الشجيرة على بعد عشر خطوات عنهما أما هما، الصبي والبنت، فقد ركضا في بركتنا الهادئة وغير العميقة، كما ركضنا فيها أنا وأختي في وقت من الأوقات. وأخذا يتراشقان بالماء ويصرخان لبعضهما البعض. وهكذا غسلت أمي البياضات على العبّارات ونظرت، وهي ترد جانباً بين الحين والآخر خصلة الشعر التي تسقط على عينيها، إلى الأولاد كما نظرت في وقت من الأوقات إلينا أنا وأختي.

لم تعد تلك المرأة التي كانت سابقاً، إنها أم غير شابة، كما أتذكرها في الطفولة. أجل هي أمي، ولكنها مسنّة، كما تعودت أن أراها الآن عندما أصبحت بالغاً، وألتقي بها نادراً.

كانت تقف على العبّارة وتصب الماء من الدلو في الطست المطليّ بالميناء. صرخت للولد بعد ذلك ولكنه لم يسمعها، و لم تحزن الأم لذلك. سعيت جاهداً أن أرى عينيها، وعندما استدارت كان في نظرتها، وفي الطريقة التي نظرت بها إلى الأولاد ذلك الاستعداد، الذي لا يمكن أن يمحى، للدفاع والإنقاذ، بحيث أنني أخفضت رأسي بصورة لا إرادية. تذكرت هذه النظرة. أردت أن أهرب من وراء الشجيرة وأن أقول لها شيئاً ما غير مترابط وحنون، وأن أطلب

السماح، وأن أدفن وجهي في يديها الرطبتين، وأن أشعر بنفسي من جديد طفلاً، عندما سيكون كل شيء في الأمام، وكل شيءٍ ممكن أيضاً...

... غسلت الأم رأس الولد، منحنية عليه بحركة معروفة لي ربتت على شعر الصبي القاسي والذي كان لا يزال رطباً. وفي هذه اللحظة أصبحت هادئاً فجأة، وفهمت بجلاء، أن الأم.. خالدة لا تموت.

اختفت وراء التلّة، أما أنا فلم أسرع كي لا أرى، كيف كانا يقتربان من ذلك المكان الفارغ حيث كانت تقف سابقاً أثناء طفولتي العزبة التي عشنا فيها.

أعوام ١٩٦٦ - ١٩٧٢

❖ النص يجب أن يكون مجموعاً بالحروف الطباعية، والتي تحاكي الآلة الكاتبة.

❖ شعر أ.أ. تاركوفسكي «غابة ايفنان»

❖ ليوناردو دافينشي. رأي في الفن.

❖ هذا هو كل شيء! أليس حقيقة يا صديقي العزيز؟ هذا هو كل شيء! (فرانس)

❖ من رسالة ا.س. بوشكين إلى ب. ياتشآدايف.

سينما ميشارين

الذكرى المئوية

نحو

الكساندر

«كان العمل مفرحاً رشيقاً»

إنني أعرف أندريه تاركوفسكي منذ عام ١٩٦٤م، ورأيته آخر مرة في عام ١٩٨٢ لدينا فوارق في السن — إنه أكبر مني بثماني سنوات، وفي البداية كانت تلك صداقة الأكبر تجاه الأصغر. عشنا بجانب بعضنا البعض، كلانا كان غير راضٍ، وكلانا جلس دون نقود...

لم نتكلم في تلك المرحلة أبداً عن العمل، تصادقنا ببساطة، بالرغم من أن أندريه كان مخرجاً لـــ «طفولة ايفان»، وبالرغم من أنني كتبت ونشرت وأخرجت في المسارح في أحد المرات قلت وأنا أعرض مؤلفي — كانت قصتي

«دليل في المدينة المهدمة»: «كتبت قصة، اقرأها، من فضلك». أعطيته إياها ليس دون هلع، وأنا أعرف ذوقه الأدبي الصارم.

كان صريحاً، يقول ما يفكر به، وكنت مستعداً لسماع: «ما هذه التفاهة التي كتبت» عندما وصلت إليه في المرة التالية، أجاب على سؤالي الأخرس «حسناً كيف»، - صائحاً «لماذا لم نعمل سابقاً مع بعضنا البعض؟!...» كانت ردة فعله تعني أنه قبل أسلوبي وأفكاري، وإحساسي بالعالم...

مرت الأعوام، ولكن عملنا المشترك كان لا يزال بعيداً. ولعل توماس مان كان الجسر الانتقائي نحو التعاون المشترك. تحرّقنا كثيراً كي نجسد «الجبل السحري» على الشاشة، وبالرغم من أن العمل لم يتم، إلا أن الجسر كان قد وصل بيننا.

لقد تعرفت على أندريه عندما رفض بعد «طفولة إيفان» العروض المربحة والمهمة جداً بالنسبة له، وكمثال على ذلك عرض للإخراج المشترك مع الولايات المتحدة لقد أصر حتى الموت على موقفه وعلى فيلمه «أندريه روبليف»، كان الرفض في كل مكان. إلى أن تم استدعاؤه بشكل عاجل إلى ل.ف. ايليتشين الذي كان يشغل في ذلك سكرتيراً للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي والذي سأل أندريه حول مخططاته. وإذا علم أن فيلم «أندريه روبليف» لن ينتهي قريباً حسب الموعد — وشعر ببوادر

التغيير في الاتحاد السوفييتي (كان ذلك عام ١٩٦٤)، سمح عندها وبهدوء بإخراج الفيلم.

عندما أنهى أندريه تصوير «روبليف»، أخذت الأسئلة تطرح باستمرار، ماذا ستعمل لاحقاً، أمضينا وبطريقة ما يوماً كاملاً في بحيرة اسماييلوف، كان يوماً مشمساً حاراً، تنزهنا كثيراً وتكلمنا وفكرنا بالقيام بإخراج لوحة عن روسيا المعاصرة وعن حقيقة واقعنا. والذي لعب دوراً كبيراً في إنضاج هذه الفكرة أن حياته العائلية كانت تمر بمرحلة معقدة، وقد كان القصة السيناريو المفترضة تتطابق في كثير من الجوانب مع حياته الواقعية. لقد عانى في ذلك الوقت وبألم من رحيل والده وقد قامت الأم ماريا ايفانوفنا، التي عملت طوال حياتها في المطبعة النموذجية الأولى المسماة باسم جانوف، بتربية أندريه وأخته مارينا.

عاشوا في بيت خشبي صغير في «شيبكا»، كانت الجدة - أم ماريا ايفانوفنا لا تزال حية وقتها، عاشوا بفقر مدقع – يتذكر أندريه كل ذلك جيداً. وقادته العلاقات المعقدة مع الأب، وغير البسيطة مع الأم إلى إدراك الماضي. كان يبدو وبشكل طبيعي بالنسبة له وليس بالنسبة لي – فقد كان يكبر في السن – إن لحظة إدراك تجربة شبابه وطفولته قد حلّت.

كتبنا السيناريو بسرعة خرافية. في أوائل عام ١٩٦٨، أخذنا قسيمة اشتراك لشهرين في بيت الإبداع «ريبينو».

عملنا في الشهر الأول أي شيء لكننا لم نكتب شيئاً، وإنما اختلطنا مع الناس. بعد ذلك رحل الجميع وبقينا نحن الاثنان. كان الربيع مبكراً، وفي شهر شباط بدأ الثلج بالذوبان، وكانت الشمس دافئة، بحيث كان من الممكن أن نفتح النوافذ.

كان أندريه يأتي إلى غرفتي منذ الصباح الباكر، وكنا نناقش المشاهد. والأمر الرئيس، وذلك ما كان يهزني دائماً، هو أن كل مشهد يرويه كان غاية في الكمال.

ليس ببساطة: «ستكتب عن هذا». كلا لقد علمنا كيف يبدو هذا، كيف يحل، وأية صورة هذه وأية آخر جملة. كانت النقطة نفسها في كل مرة (مبينة) بالنسبة له بصورة مختلفة.

استطعنا أن نبدأ بتذكر طفولة، وسن الفتوة، وشباب تولستوي كارل ايفانوفيتش، وبعد ذلك — مشاهد انهيار الكنيسة وهنا ولد المشهد. كان هذا أحد الانفجارات البركانية للأفكار والصور. وكان دائماً يتوصل إلى الصورة البصرية المتناهية الدقة وكان يبتهج بلا تعقل عندما يحصل على ذلك. إنني أتذكر كيف أننا لم نستطع، كيف أننا لم نحصل على أحد المشاهد. مشينا وفكرنا وفتشنا ولم يخطر على بالنا أي شيء ولا بأي شكل من الأشكال. «دون موهبة، دون موهبة، دون موهبة، نحن الاثنان غير موهوبين...» كنا

نكرر. وفجأة قلت: «أنت تعرف أن طيراً جلس على رأسي في طفولتي». هنا قفز كنا بض – لقد وجد ورأى هذا المشهد.

حلت في النهاية اللحظة التي كان من الضروري فيها الجلوس وترتيب كل ما ابتكرناه وفكرنا حصلنا على ٣٦ مشهد. كان ذلك كثيراً، وقد ناقشنا كل مشهد من المشاهد حتى وصلنا إلى المشهد الـــ ٢٨، والتي كان يجب أن تشكل السيناريو المقبل والمشترك بيننا. اعتبرنا بيسر العباقرة، وطيش الشباب أن الكتابة المبتكرة ستستمر أربعة عشر يوماً. يكتب كل واحد منا في الصباح مشهداً، نجتمع ونقرأ ونناقش. وإذا أردنا الحقيقة فإن الأمر كان على النحو التالي: في الصباح كنّا نفترق كلٌ إلى غرفته وفي الساعة الخامسة كنّا نجتمع، ونقرأ بصوت عال ونصحح. ناقشنا مسبقاً، أي مشهد، يكتبه كل واحد منّا، وأعطى كل واحد منّا للآخر وعداً، ب، لا يعرف أحد في الحياة، أي مشهد كتب كل واحد منا، ماعدا مشهد واحد كتبه أندريه في وقت سابق ونشره – قصـــة بيع العرجون. ولقـــد لمتـــه من أجـــل ذلك كثيراً، اعتذر بالرغم من أنه من حيث الشـــكل كان محقـــاً – القصـــة كانت مستقلـــة تماماً. لكن المبدأ هو المبدأ.

وهكذا كتبنا ٢٨ مشهداً، خلال أربعة عشر يوماً بالواقع. كتبت المشاهد بسرعة كبيرة، بسرعة خرافية بشكل عام، دون تعديل وتصحيح. ولكن

مع ذلك كان هناك حادث صدامي وحيد حول أكثر المشاهد تعقيداً والذي أعطي لي. كان ذلك المرة الوحيدة عندما لم نتطابق في شيء ما، والمشهد الوحيد الذي تم فيه إعادة كتابة شيء ما فيه. جاء إليّ أندريه راكضاً في الساعة الواحدة ظهراً، وقرأ ما كتب من قبلي، وفهمت أنه غير راضٍ. سألته بانفعال: «حسناً ماذا؟ما الذي لا يرضيك؟! فنحن تناقشنا وتكلمنا في كل شيء، وهكذا كتبت...» أهانتني هذه الكلمات إلى حدٍ كبر، بحيث أنني مزقت ما كتبته إلى قطع، «لتذهب إلى الشيطان»، نعته بكل الكلمات أثناء الغداء تذمر كل واحد منا من الآخر و لم نتحدث، استلقيت بعد الغداء كي أنام، و لم أستطع الإغفاء، نهضت وكتبت كل شيءٍ من جديد حتى العشاء كان أندريه يفتح الباب عدة مرات، كنت التفت إليه وأزمجر عليه. لقد شعر أنني «في مصنع»، لوم يزعجني. أتى متأخراً وقرأ وألقى بنفسه على عنقي وقبلني كان إنسان التقييمات الاستثنائية. بعد ذلك جمعنا ٢٨ مشهد، وبسطناها وبدا لنا أن كل شيء عادي. ظهرت زجاجة فودكا، اخترناها كنا قد من أجل هذا الحدث وفتحناها... هنا قررنا أن نعد تقييماً للمشاهد! هذا خمسة، وهذا أربعة، وهذا ثلاثة... وحصل مشهدان على ثلاثة، واثنان آخران على أربعة أما البقية فعلى خمسة.

كان أندريه يمتلك شعور المحرر المدهش. كان لدي عمل ما في حياتي مع الكثير من المحررين.ولكن لم ألتق أبداً شخصاً بدقته وبموسيقيته. كان يتكلم دائماً أن القصيدة النثرية هي كالنسيج. وهاهو غوغول يقول — قماش حريري،

أما بيسيمسكي – فيقول أنها تريكو، وبابايفسكي – فقماش منقوش مبطن.. كان أندريه موهوباً أدبياً بشكل مطلق، وإذ عملت معه فإنني لم أشعر به قائداً ولم اشعر بنفسي أيضاً مقاداً... لذلك فإن قصتنا على ما أعتقد كتبت هكذا بسهولة وبصورة طبيعية، وبأسلوب واحد، ويد واحدة، وخلال وقت قصير جداً بالمناسبة لم نكتب أكثر من ساعة ونصف، ساعتين في اليوم، ولم يكن ذلك خاصته، ولم يكن عملاً شاقاً. كان عملاً مفرحاً ومريحاً، ولقد سعينا فقط أن يكون مصنوعاً «بموهبة أكثر، وبتألق أكبر...»

وهكذا فإن السيناريو الذي أنشأناه سوية، تألف من أربع سنوات اختصرناها بأسبوعين من العمل وشهر قبل ذلك من عربدة الحياة. كان أندريه سعيداً بالسرعة والنتائج وطار قبل أسبوعين إلى موسكو مع السيناريو المعد. حينذاك كان يعمل في المؤسسة التجريبية لغريغوري شوخراي، حيث كان ممكناً إطلاق الفيلم وتصويره بسرعة.

كان الجميع في الأستوديو دون استثناء «مع» قبول السيناريو سلفاً، لكنه رفض بعد ذلك في لجنة السيناريو بشكل قطعي من قبل أ.ف رومانوف نفسه... حلت مرحلة ثقيلة لم يكن هناك أفق للعمل، وعندها أعطي أندريه موافقته على تصوير فيلم «سولياريس». انقطعت علاقتنا لسنتين تقريباً.كنت مستاءً، بالرغم من أنني فهمت طبعاً أن الإنسان لا يستطيع أن يناضل إلى ما

لانهاية، بالإضافة إلى ذلك فإن الزمن كان هكذا، حيث بدا أنه لا شيء يتحرك من النقطة الميتة...

وهاهو فيلم «سولياريس» قد صور.

حلت مرحلة، عندما كان من الضرورة التفكير بالعمل من جديد أتى إلى اللجنة ف.ت. يرماش. وقد سلك سلوكاً ديمقراطياً إلى حد بعيد، وهو يقول لأندريه: «أنت تستطيع أن تضع ما تريد». وعندما كان يرماش في اللجنة المركزية، أيّد أيضاً تاركوفسكي. ولكن أندريه خاف بشكل فظيع من السيناريو الذي كتبناه بصورة مشتركة. إنه مبني على حياة أمه، والتفسيرات لهذه الحياة، إن السيناريو كان قد أعدّ من خلال الحوار مع الأم عبر استمارة. تعذب أندريه من مسألة تصوير «الاستمارة».

وبالتالي فهو قد خطط أن تقوم بدور الأم أمه نفسها. أن يكذب عليها دون أن يكشف مأربه حتى النهاية – بصورة غير أخلاقية، أجل وبعد ذلك كانت ماريا إيفانوفنا شخصاً حساساً جداً.

لقد شعر أندريه وهو يعلم طبعها الحديدي والحازم، أنها لن توافق على التصوير، في حال عرفت الهدف النهائي. وكان يجب على ماريا إيفانوفنا أن تعرف!

كان إنساناً معقداً، وصعباً من حيث الطبع وممتعاً بآن واحد. كانت قادرة على التضحية بالكثير من أجل مبادئها، كانت هذه المرأة المدهشة صارمة لا تلين لها قناة!...

وهكذا لم يتجاسر أندريه. أربكه أيضاً أن السيناريو شخصي كثيراً وينكشف فيه بشدة. كم من الجلسات والأحاديث كان لدينا مع أندريه في تلك المرحلة وحتى ولائم الشراب – كلا لم يكن ذلك إدماناً على الشراب.. مثل ذلك يكون فقط في مرحلة الشباب – العاصفة والطويلة والمتقطعة في السهرات الليلية، والمناقشات المتوترة.

وقد لعب أحد الأشياء المفاجئة دوراً حاسماً في ذلك. وقعت في يدي قصة ف. غروسمان «كل شيء يجري...» هناك في أحد الفصول، أقصوصة مصطنعة عن زوجة مدمن كحول، تمر بكل دوائر جهنم، أتذكر، كان يوماً صيفياً. وصل أندريته، كما هي العادة في الساعة ١١ إليّ، قلت له: «استلقي على الديوان، قصة غروسمان لك، خذ كونياك اقرأ، بصوت عال فقط. اقرأ هذا الفصل دون تعبيرات، ولكن بصوت عال».

بدأ بالقراءة، كان صوته يرتعش، وكنت أحثه وأكرر: «لا تبكي، ولكن اقرأ، اقرأ، اقرأ، اقرأ...»، وبعد ذلك أغلق أندريه الكتاب وقال والدموع في عيون الجميع: «كفى، سوف نقوم بصنع المرآة».

كان ذلك قراراً قطعياً. لم يكن هناك أية تحفظات بعد ذلك. كل شيء أصبح بسيطاً، واضحاً، وكل شيء أصبح بالمقدرة . النهر قد تمّ اجتيازه. عملنا ف ظروف مثالية. شغلنا بذلك السيناريو الذي كنا قد كتبناه في وقت ما، لكننا أدخلنا تعديلات عليه كل الوقت في سياق العملية.

وصل أندريه صباحاً، والمجموعة لم تكن تعرف، ماذا سنصور — انفردنا معه في الغرفة، وناقشنا معه، ماذا وكيف سنصور اليوم. المحررة المسكبنة نيناسكوبينا، التي كانت مستخدمة في الأستوديو، ليست مثلنا — فنانين مستقلين! — سارت ورائي وسألت: «حسناً ولو ورقة توضيحية ما» — وأجبتها: «إنها ببساطة ليست عندي». جرى أندريه مع قصاصة ونثار كتابة إلى ساحة التصوير— وبهما صور.

كانت عنده دائرة من الناس رائعة وخلاقة، عملت معه — المصور يربيرغ والفنان دفيغوبسكي والملحن ارتيمييف. سأورد مثالاً واحداً فقط، كيف عملنا على مشهد الحريق. الأطفال يشربون الحليب، والأم تتحدث مع رجل غريب، وهنا بدأ يضطرم الدريس «الحشائش المجففة»، ويحترق البيدر، ثم الحريق...أثناء كتابة السيناريو الإخراجي — نجلس في ورشة دفيغوبسكي ونناقش:

«ماذا لدينا خلف النافذة؟ وهناك على امتداد كومة الدريس، في المخطط الأمامي — نافذة، وهنا بستان... ماذا في البستان؟» أربعة أشخاص بالغين

يفكرون بجدية تامة — ماذا هناك، في البستان توقفنا أكثر من يومين و لم نتحرك إلى الأمام. وفجأة يتكلم كوليا دفيغوبسكي: «هناك تزهر البطاطا».

يحل لدينا ثورة من الوضوح: هاهي الزهرة — زهرة بطاطا بلون أصفر بنفسجي|— تعطي ذلك التماسك الذي تشع به اللوحة بأكملها. لا يوجد فيها، بالواقع أي شيء صدفي، كل شيء مفكر به حتى أبسط الأشياء.

كان الوضع لدينا معقداً، وحتى مأساوياً، لأن كل شيء كان قد صور ولكن اللوحة لم تنصاع. لم تستلم المجموعة أية جائزة عن الأوقات الضائعة...

ولكن أندريه ابتكر ذلك الشيء — كان مدققاً — صنع خزانة قماشية مع جيوب صغيرة، كما يعمل في المدرسة خزانة للحروف، ووضع في كل جيب بطاقة بأسماء المشاهد — «المطبعة»، «بيع العرجون»، «الأسبانيون»، «الصم والبكم» الخ.

عملنا في مزج هذه البطاقات وقد خلصناها ووزناها، وفي كل مرة مشهدان.

ثلاثة مشاهد كانت تبدو أنها زائدة، بالطبع لم يحصل التعاقب، والواحد لم ينجم عن الثاني.

هكذا قضينا شهراً — وبدقة ٢٠ يوماً كاملة. وفجأة بعد أن نضجت الأفكار تم إخراج مشهد الأخرس الأصم إلى المقدمة، وانطلقنا نحو خزينتنا،

وانتزعنا البطاقات من بعضها البعض، وصرنا ندّسها بتشنج وبوضوح بالجيوب، وقد حصلنا على كل اللوحة أمامنا.

لم أشعر أبداً بوضوح هكذا، أن الشكل بالواقع يوجد لتجرب وضع المشاهد في ترتيب آخر خلافاً لذلك الفيلم لن يكون.

لم نعرف كيف نقف تجاه لوحتنا. أريناها لـ ف. شكلوفسكي. وب.كابيتا وب. نيلينا، ويو. بونداريف، وش. آيتماتوف. وأخيراً لـ د.شوستاكوفيتش لم يكن يستطيع السير، ونظمنا له مشاهدة في تلك الصالة، التي كان يمكن أن يدخلها بالسيارة تقريباً. لقد أعجبت اللوحة هؤلاء الناس.

كان ردود فعل لجنة السينما مفاجئة وحتى مضحكة. حل السكون بعد المشاهدة عند ف.ت. يرماش، كان هناك توقف طويل. ضرب «وزير السينما» بيده على رجله بصوت عال وقال: «لدينا بالطبع، توجد حرية الإبداع! لكن ليس إلى تلك الدرجة!» لم يكن هناك تعديل، لكن كلمة يرماش حددت مصير اللوحة. عرضت فقط في بعض دور السينما، وهناك دان دائماً صف طويل.

وعد يرماش بإرسال اللوحة إلى كان وأعطى كلمة بذلك، لكنه لم يرسلها، وبعد ذلك كان مهرجان موسكو، ومن جديد لم تعرض، بيد أن الدولة كسبت منها كمية محترمة من النقود: عندا استجوب يرماش حسب

سمعنا: «ما العمل مع هذه اللوحة؟» أجاب: «حسناً اطلبوا سعراً غالياً، بحيث لا يوافق عليه، أكثر بمرتين وثلاث مرات، مما يجب».

وافق الغربيون على السعر المعين واشتروا اللوحة هكذا بدهاء بحيث أنها طافت عدداً كبيراً من البلدان. كان أندريه منفعلاً عندما رأى الصف غير المنتهي في ميادين بليسينسكي من أجل مشاهدة فيلم «المرآة»... أن يقف صف خلال أسبوعين في ميادين بليسينسكس لأجل أي شيء — أمر مستحيل!

استلمت اللوحة جائزة إيطاليا الوطنية، كأفضل فيلم أجنبي لذلك العام وجائزة دونا تيللو في عام ١٩٨٠.

كان آخر لقاء لي مع أندريه في إيطاليا — ثلاثة أيام لا تنسى في روما.. أتينا إليه في الصباح، وذهبنا إلى زيارة السينمائيين الطليان، تعاشرنا وتكلمنا، ولكن ليس هذا ما كان ممتعاً بالنسبة لأندريه. كان من الهام بالنسبة له، ماذا سنعمل لاحقاً — وكانت الـ ٦ساعات في كاتدرائية القديس بطرس من الأيام التي لا تنسى من الحياة المتبقية. نحن لم ننظر إلى الجدران والزخرفات الفنية— كل هذا التصوير الغنائي الباهر لم يقلقنا، -نحن نتكلم ونتكلم، عن ماذا سنكتب لاحقاً، ونتبادل الآراء، التي تراكمت كثيراً لدينا خلال سنوات الفرقة. نجلس في قهوة في فيللا بورغيزا. يوم مشمس، كراسٍ بيضاء. نتنزه ونتكلم فقط حول ماذا يجب أن نكتب لاحقاً... والآن، عندما أنظر إلى «خطيئة آدم

وحواء» (القربان) — من الصعب بالنسبة لي جداً مشاهدة هذا الفيلم — أتذكر كل ما تكلمنا عنه، وكل ما قاسمني إياه، وأنا بدوري، معه حينئذ في روما، هذه يوميات أندريه، يوميات أفكاره، وكأنه يجيبني من ذلك العالم.

حاول أن يعيد لفن زمننا الكرامة والثقافة الحقيقية، كان يتكلم دائماً:

«الشيء الجيد أستطيع عمله فقط من خلال ثلاثة أشياء، الدم والثقافة والتاريخ». الثقافة والتاريخ كانتا مقطوعتين في فترة الثقافة البروليتارية عندما رحلت إحدى الفئات المثقفة، وجاءت أخرى، وجاءت سينما جديدة، مبنية على مبادئ أخرى. كان أندريه واحداً من أوائل من حاول التغلب على هذه القطيعة واستطاع أن يبني جسراً. ربما كان من الأسهل بالنسبة له أن يعمل ذلك، لأن أباه — شاعر كبير، وليس صدفة أنه كانت في «المرآة» إلى جانب أشعار أرسني تاركوفسكي، رسالة الكسندر بوشكين إلى بطرس تشادابيف عن مصير روسيا، وعن المقتطف المعين لمعركة كوليكوفسكي العظيمة.. وبالطبع الحرب التي اقتفت أثره كل حياته — مرض مرضاً خطيراً بالسل أثناء الحرب، وقضى فترات طويلة في المصحات، درس في مدرسة حراجية... ومع ذلك أدركه الموت أخيراً: توفي من سرطان الرئة.

إن أندريه هو شخصية كلاسيكية للفنان. لقد فهم أكثر من أي شخص آخر وبشكل رائع الثقافة الروسية. يعود في لوحة «المرآة» إلى الأماكن، حيث

ولد، وحيث جذوره وأسلافه — أطباء ريفيون، ويسير أبعد– نحو جذوره النبيلة، ودائماً من تلك الكرامة. لقد وقف أندريه موقفاً جدياً من الإبداع. في موقفه هذا أرى إحساساً داخلياً بالمسؤولية الكبيرة. لأنه لم يعمل أي من الفنانين الكبار هكذا كثيراً لأجل نهوض السينما السوفييتية... أنشأ السينما الخاصة بنا، حدد معنى السينما في روسيا كفن مستقل —بأنه خالد، كخلود المسرح والأدب والتصوير.

عاش بصعوبة، كما عاش القليل جداً مثله في تاريخ الفن. قام أندريه تاركوفسكي كما لم يقم أحد آخر بحقنة جبارة ليس فقط بالنسبة للثقافة الروسية، بالرغم من أنها كانت في الصف الأول، وإنما بالنسبة لكل الثقافة العالمية.

الطبعة الأولى / ٢٠٠٣

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

سيناريو فيلم المرآة

إخراج: اندريه تاركوفسكي

ترجمة: بولس كامل ديب





٢٠٠٣

سعر النسخة داخل القطر ٩٥ ل.س

في الأقطار العربية مايعادل ١٩٠ ل.س

Designed by: A.Aziz.M